ابراهيم بن يوسف

إشكالية العمران والمشروع الإسلامي

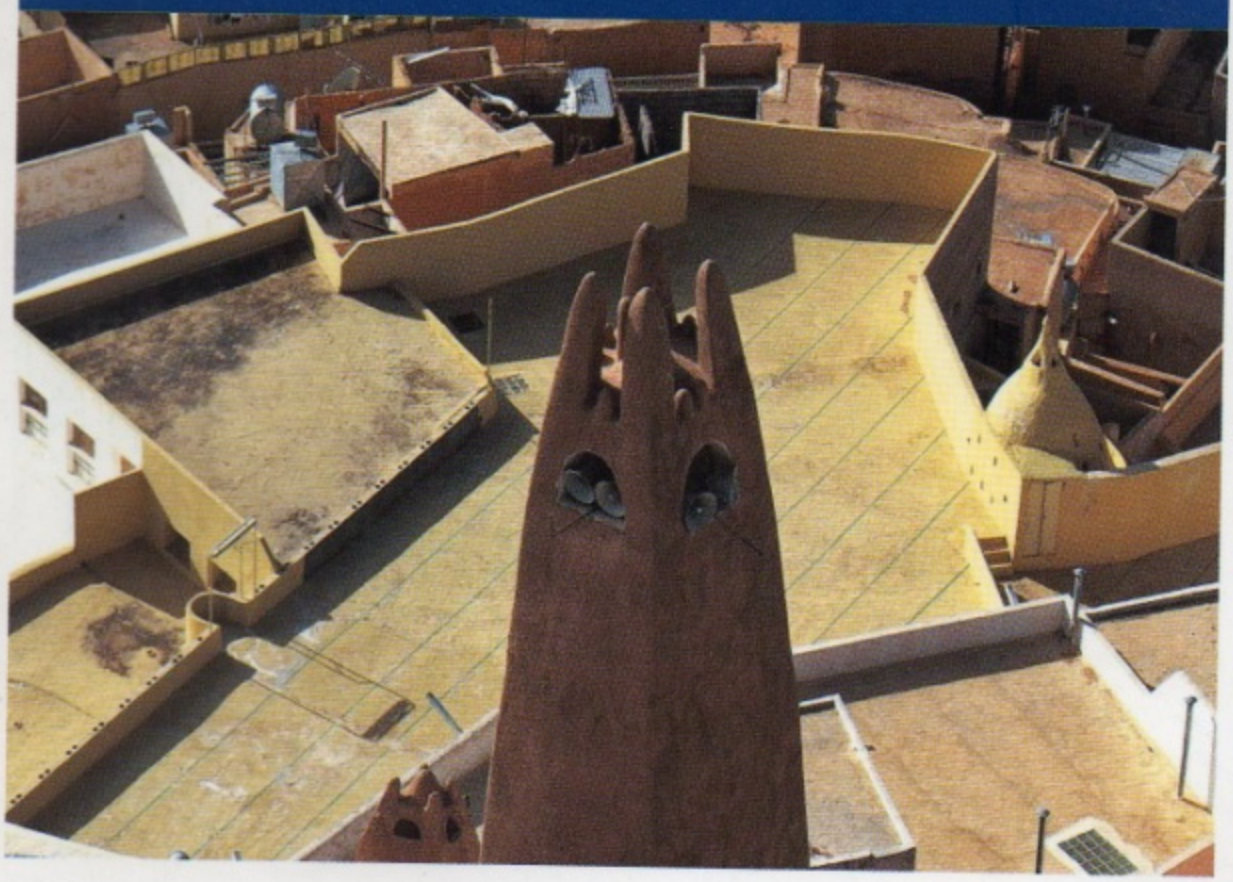

دراسة

éditions Alpha

الدكتور إبراهيم بن يوسف

إشكالية العمران والمشروع الإسلامي

الدكتور إبراهيم بن يوسف

إشكالية العمران والمشروع الإسلامي

الكتاب

إشكالية العمران والمشروع الإسلامي

تأليف

الدكتور إبراهيم بن يوسف

الطبعة الأولى: الجزائر 2010

الناشر

منشورات ألفا، قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر

الهاتف: 72 09 21 21 213+

الفاكس: 61 98 21 21 213+

البريد الإلكتروني:

editions@alpha-dz.com

www.editions-alpha.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

منشورات ألفا، قصر المعارض، الصنوبر البحري - الجزائر

ردمك: 2-63-886-9947

تقديم
إشكالية الأصالة والمعاصرة

تتمحور إشكالية العمران العامة حاليا حول نقطتين أساسيتين يركز عليهما التفكير والتنظير في ميدان العمران جل اهتماماته:

الأولى، هي محاولة فهم وضبط العناصر والعوامل المحركة لسيرورة النمو العمراني والتي تشارك في عملية إنتاج المدينة.

أما الثانية، فهي محاولة إيجاد أفضل وأنسب الصيغ والأشكال لنمو عمراني منسجم.

تفرض الظاهرة العمرانية مكانتها في التفكير الإنساني الآن أكثر من ذي قبل، نظرا للتغيرات التي طرأت على المدن الحديثة والتحولات العميقة التي تعيشها (تحول في الحجم والمقياس والوتيرة) وذلك من جراء الثورة الصناعية والتقدم الذي وصل إليه عالم التكنولوجيا والاتصال وما ترتب عنهما من تحولات في أنماط الإنتاج والاجتماع والعمران والحياة بصفة عامة وعلى مستوى العالم كله.

وهذا ما زاد في تعقيد عمليات الإنتاج العمرانية شكلا ومضمونا ووتيرة.

إذ انتشرت المدن ومظاهرها وما زالت، وتربعت على الأقاليم وفق وتيرة تحول سرعتها دون التحكم فيها وتفوق سرعتها قدرة فهمهما.

وطغى النمط الحضري على التجمعات الإنسانية، وسيطرت ثقافة المدينة ونمط حياتها على الذهنيات. كما سيطر نمط إنتاجها على الأنماط الأخرى وتغيرت المدن أشكالا ومضامينا. وهو ما يجعلنا نحصي الظاهرة العمرانية ضمن تحديات القرن العشرين.

من هذه الإشكالية العامة تتفرع إشكاليات أخرى من بينها تلك التي تتعلق بإعادة تنظيم المدن وبإعادة هيكلتها والحفاظ على هويتها وتنظيم وتوجيه توسعاتها الجديدة... إلخ.

وكلها تطرح إشكالية الإنشاء المعماري والتنظيم العمراني؛ وما يزيدها حدة هي الأزمة التي تعاني منها العمارة المعاصرة (تجربة ونظرية) والراجعة إلى افتقارها لتصور سليم ولأدوات وقواعد عمل ملائمة وإلى لغة تعبير واتصال (الاتصال عن طريق الأشكال والمباني) يتم وفقها تصوير الأشكال وعلاقاتها وهذا ما يثير الجدل الحاد بين منظري العمارة (نظرية الإنتاج المعماري، أي إنتاج الأشكال).

تدور التساؤلات الرئيسة كالتالي:

كيف نصمم الأشكال ونعالج الفراغات؟ هل باعتبار الوظيفية فقط أم وفق ما تمليه ظروف وأدوات الإنشاء (النظرية الوظيفية)، أم وفق قيم نابعة من الثقافة ومن الإدراك البشري؟

ما هي أسس هذا النظام التصويري؟ أهو مستقل أم مرتبط؟ وبماذا؟ بالمجتمع؟ بالثقافة؟ بالتجربة الفردية؟ بالإدراك؟...

ويبقى السؤال مطروحا. كيف يمكن تصوير الأشكال الجديدة للمدن؟ و كيف يمكن إعادة تنطيمها؟ وهنا نطرح إشكالية الأصالة والحداثة / التواصل أو القطيعة وما انفكت إشكالية التقليد والتجديد تثير الجدل فى أوساط المنظرين وخاصة بعد أزمة العمارة الحديثة.

فإذا كان الإنتاج المعماري في عصور ما قبل الصناعة ناتج أكثر عن وفاق اجتماعي يتجسد في التقاليد والعادات والخبرة الحرفية المتوارثة، فإن الإنتاج المعاصر يسيطر عليه فراغ كبير من جراء بروز أوضاع ومضامين جديدة.

فانقسمت الاتجاهات بين مقلدي الماضي ومبدعي المستقبل لكن ألا يمكن إيصال الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل؟ حسب موقف توفيقي (إشكالية الأصالة والمعاصرة).

وهذا ما ينطبق على المدن الإسلامية العربية التي تتميز بماض عريق وثقافة أصيلة وثرية دخلت عليها أنماط الحضارة الغربية الحديثة فأحدثت قطيعة بين ماضيها وحاضرها.

ولم تع صحوتها إلا عندما أعلنت تلك الحضارة فشلها (أزمة الحداثة). هذه الصحوة تستدعي إعادة تنظيم هذه المدن وتوجيه وتنظيم توسعاتها الجديدة وذلك بمراعاة فواصل وروابط بين الماضي والحاضر والمستقبل....لكن كيف ذلك؟

إذا كانت المعاصرة هي مواكبة الزمن والمكان، فما هو الإطار الذي يحددها؟ أي ما هي معاييرها وأسسها؟ كيف تتميز الثوابت من المتغيرات؟.....

وفي هذا يلعب التاريخ دورا هاما ليس بهدف تقليد الماضي لكن لاستنطاق التاريخ وإدراك العمران في تحولاته عبر الأزمنة والأمكنة لإدراك ديمومته وتغيراته أي الخيط الموصل والذي تضفيه المعاصرة بقوة جديدة أو دفع يصيغه في الزمن والمكان.

أزمة العمران أزمة حضارة

العمران لقاء بين الإنسان والمكان في الزمن. هذا الكل المترابط والمتكامل يعيش أزمة انفصال الشكل عن المضمون وانفصال المادة عن الروح.

على غرار ما يعيش المجتمع الإنساني الحديث من أزمات جراء الفراغ الروحي.

الروح التي استبدلت بالمادة فقط، فأصبحت المادة هي ماهية الشيء ونهايته وهدفه، طغت مفاهيمها على الثقافة الحديثة التي أصبحت ثقافة الاستهلاك تطغى عليها، تسودها المفاهيم المادية وتحتكم إلى قوانينها وتتداولها المجتمعات عبر قنوات الاستهلاك الإعلامي.

ثقافة فرضت عنوة على الإنسان الحديث وجاءت لتهميشه وهنا فقد توازنه الكوني واستفسر في وجوده و ذاته وكونه.

ثقافة الرهانات التي ما انفكت تحدد تصرف الإنسان وتنظم وتدير حركاته وعلاقاته.

وفي ذروة الأزمة قام الإنسان هائما يبحث عن هويته وذاته مستفسرا في وجوده وكونه.

ويعاني العمران العربي الإسلامي على غرار المجتمع بدوره من هذه الأزمة وربما بصورة أعنف من الغرب نظرا لكل الخلفيات السلبية التي سببها الاستعمار حيث أوقفت سيرورة الحضارة في الزمن وأفرغت تلك المجتمعات من روحها، فأصبحت تابعة للغرب في صورة مركز وإطار حيث يقرر ويبرمج لها، ومع إيقاف سيرورة حضارتها العادية ألحقت بالغرب تابعة تتعامل سياسة واقتصادا وفكرا مع ما يتمخض خارجها وهو غريب عنها لكنه في انسجام كامل مع الدور الذي أعد لها.

فأصبحت دولها وأقاليمها ومجتمعاتها مجرد أسواق استهلاك ومصادر ثروات ومخابر تجارب لكل المشاريع العسكرية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية.

فجاءت ثقافتها صورة لكل التناقضات التي يتميز بها المجتمع الحديث المتخلف، فاقترن التخلف المادي بالتخلف الفكري كي تحل أزمتها أزمة حضارة قبل كل شيء.

حركات ما بعد الاستقلال والمشاريع في ظل السيادات الوطنية، زادت لتلك التناقضات حدة. لكونها لجأت إلى إستيراد مشاريع وأنماط أجنبية في جميع المجالات العمرانية والمعمارية والسياسية والاقتصادية والثقافية، مشاريع تبلورت في أوساط وبيئات أجنبية وحسب مفاهيم وأصول غريبة تماما عن الحضارة الأصلية.

وهذا زاد من حدة القطيعة بين ماضي وحاضر هذه المجتمعات وتجاوب أكثر مع استرسال وتيرة النمو المتناقض الذي بدأ مع

الاستعمار. ومن أهم انعكاسات هذه القطيعة وهذا الانشطار والتفكك للمشروع الحضاري الأصلي بروز التناقض الكثيف في التعامل مع بعض الرموز الأصلية التي بقيت جامدة وشكلية مع مفاهيم أجنبية وغريبة.

نلخص مخلفاتها فيما يلي:

- تضخم المدن وهجرة الأرياف.
- أزمة إقليم يفتقد للتوازن بين أجزائه ويعاني من الانشطار والتفاوت والتخلف.
- أزمة السكن الذي أفرغ من روحه واعتبر عدديا وكميا ولم يراعى كهدف في ذاته بل كوسيلة لتحقيق السياسات العمرانية ولحل معادلة حسابية بين العرض والطلب.
- أزمة العقار الذي يفتقر لأشكال وتنظيمات وتشريعات ملائمة.
- أزمة الحياة اليومية التي تسودها التناقضات.
- أزمة عمارة شكلا ومضمونا، في بُعديها الفني والتقني.
- أزمة مدينة تعاني من الانشطار في مجمعات وظيفية.
- أزمة ثقافة ومجتمع، أزمة حضارة.

أما الرصيد الموجود والمعمول به والذي يسود في الغالب شكلا وتنظيما، فلسفة وعمارة هو من مخلفات العمران الحديث الذي تبلور في الغرب مع الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر.

والذي تمتد جذوره في عمق الفلسفة المادية التي تعتقد بهيمنة الطبيعة على الإنسان والتي يمثلها في الجغرافيا مذهب الحتمية وفي البيولوجيا نظرية داروين وفي العمارة والعمران المذهب الحديث الذي تأثر كثيرا في بلورة مفاهيمه بالعلوم الطبيعية حيث استمد الأغلبية منها وأقام فلسفته على تصور الأشكال على أنها ناتجة عن شروط الإبداع وحاجة الإبداع على غرار الحتمية.

وسيطرت الوظيفة على تصور المدينة التي سايرت الوظائف الطبيعية والآلية والبيولوجية للإنسان، الأكل والنوم والعمل والترفيه، فغاب الإنسان روحا وثقافة من المشروع وحلت محله الطبيعة المتمثلة في الوظائف البيولوجية، فجاءت المدينة مجموعة قطاعات وظيفية (zones) في شكل شظايا منشطرة. وغاب معنى وروح المدينة. وقد استوعب النظام الرأسمالي هذا المذهب.

مما زاد في تهميش الإنسان الذي انقلب إلى آلة إنتاج وآلة استهلاك، وأُفرغ من روحه ورموزه وكل مميزاته وجرد منها ليبقى الإنسان البيولوجي الموحد النوع (standard) والذي يقطن في التجمعات السكنية الكبرى التي يخضع تصميمها إلى معايير وظيفية موحدة النوع مجردة من كل إبداع ورمز ومميزات.

وانشطر المجتمع شظايا، على غرار المدينة، مما زاد من الفوارق بين المجموعات والطبقات ومن الضغوط التي يعاني منها الإنسان.

وقد ساد هذا الفكر في الدول العربية الإسلامية على التصورات وتصميم وتنظيم وهيكلة المدن والإنتاج المعماري في ظل السيادة الوطنية. ومن أهم مخلفاته:

- توسيع وانتشار التجمعات السكنية الكبرى والتي لا يسمح المقال التفصيل في أزمتها.

- انشطار المدينة إلى أجزاء وظيفية تنفي روح المدينة.

- سيادة الطابع الاستهلاكي للعقار والسكن والمدينة عموما.

– تهميش الإنسان الذي أصبح رهينة الوظيفة التي تحدد الشكل والمضمون.

- فصل الإنسان عن فطرته ورموزه وثقافته.

- عدم تجاوب العمران والعمارة مع تصوراته وطموحاته وحياته.

- فراغ وفشل في التنظيمات والتشريعات مما ساعد على الانحراف السياسي والذي يتجسد في سوء التسيير والسباق على رهانات المدينة والعقار.

- فراغ روحي وثقافي حلت محله وتيرة الاستهلاك، مما أدى إلى الانحراف الاجتماعي وهذا ما سلكته الدراسات الحديثة في علم الاجتماع الحضري التي انتهت نتائج دراساتها إلى ربط كثير من الظواهر الجديدة كالانحراف والإجرام والانتحار وتفكك الأسرة ... إلخ بالأوضاع والظواهر التي تتميز بها المدينة الحديثة.

الصحوة الإنسانية العالمية

ذروة هذه الأزمة التي بلغها المجتمع والعمران الحديث أثبتت فشل المشروع وانهياره. وهذا ما ساعد على يقظة المجتمع الإنساني كله.

فجاءت هذه اليقظة بمثابة صحوة عالمية مست كل الشعوب وكل الميادين، تتجلى أهم ملامحها في البحث عن الذات والهوية والبحث عن بديل لمشروع الحداثة الذي تمخضت عنه الأزمة.

وتأخذ هذه الحركة اتجاها نحو إعادة الاعتبار للإنسان وللثقافة وللتاريخ. هذه العناصر التي طالما همشت في ظل الليبرالية الفاحشة التي تسيطر فيها المادة وفي ظل الشيوعية القمعية التي تسيطر فيها الإيديولوجيات الاحتكارية.

نتجت عن ذلك تحولات عميقة وجوهرية مست جميع الميادين السياسية، والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعمرانية... والتي تسود على الوضع الإنساني حاليا.

أما في ميدان الفكر والعمران، فتتجلى تلك التحولات في المذاهب الفكرية والعلمية والمعمارية التي جاءت بعد المذهب الحديث لإعادة الاعتبار للإنسان (post modernisme) والتي تحولت تصوراتها للإنسان بصورة جوهرية، ومنها ظهور البنيوية وما تفرع عنها والتي استلهمت كثيرا من الميادين العلمية والفكرية حيث أصبح تصور الأنظمة خاضعا لنظام الإدراك الإنساني للأشياء.

أعيد الاعتبار كذلك للمدينة حسب تصور شمولي كنظام مترابط ومتكامل... إلخ.

وانفردت إشكالية الأصالة والمعاصرة بميزة ومكانة خاصة ضمن كل اهتمامات البحث الأخرى، وقد تندرج التجربة اليابانية ضمنها كمثال. وفي هذا الإطار يكون المشروع الإسلامي من ضمن المشاريع المرشحة كبديل للآفاق المستقبلية.

الصحوة الإسلامية

على غرار كل المجتمعات الإنسانية التي عانت طويلا من هذه الأزمة، تستيقظ المجتمعات الإسلامية بعد الإعلان عن فشل الحداثة.

تتجه صحوتها نحو الرجوع إلى الأصول أي إلى جوهر الحضارة الإسلامية لتصور مشروع مستقبلي تمتد جذوره في الفكر الإسلامي وتسمو فروعه نحو أفق المستقبل.

لكن هذه الصحوة بدورها تعاني من تحديات تعرقل مسيرتها وقد تكون نتيجة للتهميش والاستعمار وما ألحقه من أضرار بهذه المجتمعات والتي لا تزول رواسبها بسرعة وسهولة. علاوة على كثير من هذه التحديات يبقى الجمود والركود الذي أصاب الفكر الإسلامي والذي التحم بالتخلف الاقتصادي أقوى هذه العراقيل والتحديات.

أبرز نتائجها الخلط بين المفاهيم والأشكال، أي بين الأصول والفروع وبين الثوابت والمتغيرات. وقد أدى سد الباب أمام أفق البحث والاجتهاد إلى ركود فكري.

وتركز جميع الحركات الإسلامية جهدها في هذا الصراع بين المقلدين والمحدثين ويبقى فيها الفكر رهينة وضحية.

وقد ساعدت الأنظمة السياسية والسلطوية في البلدان الإسلامية هذا التناقض وهذا التناطح، خدمة لمصالحها ولقمع المشروع الإسلامي ومنعه من الظهور. أما الشعوب التي تتخبط في الجهل والفقر، فهي تسقط ضحية هذه المراهنة، فتنطلق مدعمة هذا الاتجاه.

فحصرت العمارة الإسلامية في رموزها الجامدة والبالية وهي القوس والقبة على غرار العقيدة الإسلامية التي سُجنت في الزي واللباس والصراع القائم على الأشكال.

الفصل الأول

مسار العمران البشري
ومشروعية الحل الإسلامي

1ـ المسار التاريخي للعمران البشري

المسار التاريخي عبارة عن أحداث متصلة ومتسلسلة تجسد تراكم المعارف والتجارب البشرية. وحين تنضج تلك الخبرات وتتوفر ظروف التغيير تنفجر الأوضاع وتحدث تحولات عميقة تتولد عنها أوضاع جديدة وذلك ما جرت العادة بتسميته بالثورات الإنسانية وهي منعطفات هامة في المسار التاريخي للعمران البشري.

يكاد يتفق المفكرون على أن أهم المنعطفات للمسار التاريخي للعمران البشري هي أهم الثورات التي تم وفقها الانتقال من وضع (اجتماعي واقتصادي...) إلى وضع آخر...

وهذه الثورات هي الثورة الزراعية ووفقها تم الانتقال من الكهف إلى القرية والثورة التجارية أو الانتقال من القرية إلى المدينة المزدهرة والثورة الصناعية أو الانتقال من المدينة إلى المجمّع الحضري وقد تضاف كذلك الثورة الحضرية أي الانتقال من المدينة إلى الظاهرة الحضرية.

كيف تمت تلك التحولات: ما هي عواملها وسيرورتها؟ وما هي توجهاتها الرئيسية؟

1-1- الثورة الزراعية: من الكهف إلى القرية

حدث جد هام في تاريخ البشرية، فتح أفاقا أمام الإنسان وتم بمقتضاه انتقاله من وضع بسيط في الاجتماع والمعاش إلى وضع أكثر تعقيدا.

انتقل الإنسان من الحياة البسيطة حيث كان يعتمد في معاشه على القطف والجني والصيد ويلجأ في منامه إلى الكهوف المحفورة في الجبال. فلا معاشه ولا منامه يتطلب جهدا فكريا قدر ما هي آلية عضلية.

كما لم تستدع حياته ضرورة اجتماع بقدر ما أن العيش يقوم على جهد فردي لا يتطلب ضرورة التعاون. وكان الإنسان متنقلا طالما لا يرتبط معاشه بمكان.

لكن أمام شبح انقراض الفرائس وأمام محدودية علاقة الإنسان بالبيئة، كان عليه اكتشاف مصادر طاقوية ومصادر عيش جديدة.

وذلك ما تم بالثورة الزراعية حيث اكتشف الإنسان طرق عمل جديدة ومصادر طاقوية فتحت أمامه آفاق جديدة.

ولا يمكن تصور الحدث بمعزل عن سيرورة طويلة تفاعلت فيها ظروف مختلفة تولد عنها وضع جديد تزامن مع ارتفاع في المستوى الثقافي.

ولم يتبلور هذا الوضع الجديد في وقت واحد في كل أطراف العالم، بل تم بتدرج وفي فترات متباينة حسب المكان.

فقد تكون منطقة فلسطين وما بين النهرين المهد الأول حيث ظهرت حوالي 8000 سنة ق. م انتشرت عبر الأنهار وتطورت على ضفافها. وانتشرت في آسيا عبر نهر الهند قبل 5000 ق.م وانتشرت عبر نهر النيل في إفريقيا حوالي 5000 ق. م.

وانتشرت في أوروبا عبر نهر الدانوب والبحر الأبيض المتوسط فيما بعد وفي أمريكا ظهرت حوالي 3000 سنة ق. م.

وباكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات تحسنت وتعقدت ظروف المعاش للإنسان وتتالت اكتشافات بطيئة ومتتالية تمليها الملاحظة والحاجة اليومية وتتوارثها الأجيال.

وقد تطلب العمل الزراعي مستوى ثقافيا رفيعا ضروريا لمعرفة الأحوال المناخية والتحكم في طرق العمل كما اقتضى كذلك اللجوء إلى مصادر طاقوية جديدة. فعلاوة على الطاقة الكيمياوية والإنسانية والنباتية لجأ الإنسان إلى استخدام الطاقة الحيوانية وطاقة الهواء والماء. كما اقتضى العمل اكتشاف وسائل وأدوات تطورت من الأدوات الحجرية إلى الأدوات الحديدية. فظهر المحراث والعجلة والعربة والمراكب الشراعية وذلك حوالي 3000 سنة ق. م في مصر والهند وما بين النهرين والمتوسط.

لكن تبقى أهم انعكاسات اكتشاف الزراعة فيما يخص العمران هي ضرورة الاجتماع لما يقتضيه ذلك العمل من تعاون للأيدي. كما اقتضى كذلك ضرورة الاستقرار لارتباطه بالمكان، فتم بذلك ظهور القرية.

من القرية إلى المدينة

فالمكان والاجتماع يحتاجان إلى عمران والعمران لا يستتب إلا بالنظام والأمن. انعكس عن هذا التنوع في الوظائف تقسيم أولي للعمل إذ انعكست عن العمل الزراعي ضرورة صناعة الأدوات وتسويق المنتوجات. وانعكست عن عمرانه ضرورة الإدارة والحماية ونظرا لمحدودية طاقة الريف، فقد اقتضى الوضع ضرورة تأسيس

اجتماع آخر يتولى الوظائف الخارجة عن طاقة الريف، فظهرت المدينة الأولى.

فبينما اهتم اجتماع الريف أساسا بالعمل الزراعي، تولى اجتماع المدينة وظيفة الصناعة والحماية والتسويق والسلطة (اقتصادية، سياسية، وعسكرية) ولذلك يذهب كثير من المؤرخين إلى أن ظهور المدينة تزامن مع ظهور القرية أو تبعها بمدة قصيرة.

لكن اتسمت الأوضاع كلها بنوع من البساطة النسبية، فكانت الأحجام البشرية جد متواضعة وكانت وتيرة نموها بطيئة، كما كان حجم الإنتاج ضعيفا ووتيرة نموه تكاد تكون راكدة واعتمد الاجتماع على أولى الروابط أساسا وهي روابط القرابة.

فعلى الصعيد الديمغرافي، تميزت المجتمعات الأولى بنظام غالبا ما يطلق عليه اسم النظام الطبيعي ويتميز بكثرة الولادات وكثرة الوفيات، مما يجعل نسبة النمو الطبيعي ضعيفة جدا، علاوة على المجاعات والكوارث الطبيعية والأوبئة والحروب التي ساهمت في تخفيض أحجام السكان.

وعلى الصعيد الاقتصادي، كانت أنظمة إنتاج من النوع البسيط الذي يعتمد أساسا على الاكتفاء الذاتي وكثيرا ما غابت الفوائض التي يعتمد عليها في العمران والترقية الاجتماعية والاقتصادية.

أما على الصعيد الاجتماعي، فتميزت المجتمعات الأولى بسيادة الروابط العائلية أو ما يسمى بالعلاقات الأولية وهي أساسا ترتكز على القرابة. فتميزت بالبساطة وبالتجانس، فجاءت بذلك حسب المفهوم اجتماعا للضرورة [1].

ولم تكن المدن الأولى سوى تجمعات بشرية قائمة لذاتها مستقلة اجتماعيا وسياسيا تتربع على أقاليم محدودة وتسيطر على أقاليم زراعية تابعة لها[2].

وإذا كان الفائض الإنتاجي وهو العامل الأساسي لترقية العمران غائبا في أنظمة الاكتفاء الذاتي، فكيف نفسر الرقي الذي بلغته الحضارات الأولى القديمة مع اعتمادها على الزراعة؟

نعم، لقد شهد التاريخ قيام حضارات بلغت درجة فائقة من الرقي ومنها حضارات ما بين النهرين، حضارات اليمن والهند والصين ومصر، تلتها أجيال أخرى من الحضارات ومنها حضارة الرومان واليونان والفرس...الخ [3].

وسبق وأن رأينا أن المدينة وليدة القرية حيث أن العمل الزراعي استدعى ضرورات اقتضت تقسيما للعمل وظهور اجتماع المدينة. ومن هنا تبدأ أول علاقة بين الريف والمدينة، علاقة تكاملية وظيفيا حيث يشكل الريف مصدر الإنتاج الغذائي والمواد الأولية، بينما تتولى المدينة وظيفة الإدارة والحماية ووظيفة التوزيع والتبادل التجاري والإنتاج الصناعي.

لكن هذه العلاقة بدل أن تكون أفقية كانت عمودية. إذ أن المدينة كانت تستمد قوتها من الريف ليس فقط كمصدر وحيد لجمع مواردها بل وكصاحبة القوة السياسية والعسكرية، فرضت هيمنتها وسيطرتها على الريف.

واعتبارا لمحدودية الطاقة الإنتاجية للريف ولطابع الركود المميز لنظام الاكتفاء الذاتي، فقد لجأت المدينة لتسجيل فائض إنتاجي

ضروري لتوسعها وتدعيم قوتها إلى نظام يضمن لها استغلال أقصى قدر لطاقة الإنسان وهو نظام الرق والعبودية.

فتوسعت تلك المدن وازدهرت حضارتها على حساب الإنسان، فكان على الإنسان أن يدفع الثمن غاليا.

إذا افترضنا مثلا أن الطاقة الإنتاجية التي تتوفر لدى المزارعين لا يمكن لها أن تتكفل بأكثر من ضعف عددهم ممن يشتغلون بغير الزراعة، أي من سكان المدينة، معناه أن المدينة وفي الاكتفاء الذاتي تجد صعوبة في ترقية جيشها وصناعها وإداريها. وكل تجنيد إضافي أو توظيف إنما ينعكس بضغط على الطاقة العادية للمزارع.

وهذا الضغط الضروري تولد عنه نظام يهيكله وهو نظام الرق.

وهنا علاوة على العلاقة الوظيفية التكاملية بين الريف والمدينة، نشأ نظام تقسيم اجتماعي يدعم علاقة الهيمنة والسيطرة، فيسود التدافع (وهو المصطلح العربي لمفهوم الجدلية) على تلك العلاقة وهو ما اشتهر بالثنائية (الريف والمدينة).

فكان سكان المدينة طبقة السلطة التي بيدها الملك والحكم بينما يسكن الأرياف والقرى طبقة العبيد والأجانب والمستخدمين في الأرض. وكانت المواطنة في المدينة الإغريقية تنحصر في طبقة أصحاب الملك والسلطة وفي الإداريين والجيش بينما يخرج من دائرتها الأجانب والعبيد والمستخدمين، لكن ذلك التدافع الاقتصادي والاجتماعي كان كفيلا بتحريك عجلة التاريخ وبتراكم التجارب والمعارف وبتراكم الأحداث التي كانت تصب كلها في اتجاه التحرر، تحرر الإنسان من الإنسان، تحرر الإنسان من الطبيعة، تحرر الريف من المدينة... جاء ت الثورة التجارية منعطفا تاريخيا هاما، فجر أوضاعا جديدة وفتح أفاقا جديدة.

1- 2- الثورة التجارية، من المدينة الأولى إلى المدينة الحرة

التبادل التجاري فتح آفاقا جديدة للعمران وانعكاسه الأساسي هو التوجه الجديد للمدن. فبعدما كانت هذه الأخيرة تستمد مواردها وقوتها من الريف اتجهت نحو نظام التبادل لتستمد من الأسواق ثروتها وتعتمد على قيمة التبادل لترقية اقتصادها، فاستقلت عن الريف بمواردها الخاصة وباقتصادها، كما أن الريف تحرر من هيمنة المدينة وسيطرتها وبقي المورد الغذائي والإنساني فقط.

كما ازدهرت الأسواق وخطوط الاتصال والروابط بين الأقاليم على أساس أنها البنية الأساسية للاقتصاد الجديد. علاوة على الاقتصاد، شجعت التبادل على مستوى الثقافة والمعارف التي بدأت تشهد نوعا من الازدهار.

يتميز هذا الاقتصاد الجديد بحركية فائقة نظرا للفوائض المتزايدة التي يمكن تسجيلها، فكانت الترقية المالية والاقتصادية في تفاعلها مع ترقية علمية وثقافية كفيلة بإعطاء نفس جديد للصناعة والحرفة، ما انعكس إيجابيا على ترقية الإنتاج الزراعي وكفيلة كذلك بإنعاش حركة عمرانية ظلت راكدة تحت وطأة الركود الاقتصادي والثقافي.

وهكذا، فاستقلال المدينة بمواردها الخاصة الجديدة واعتمادها على اقتصاد حركي سجل ازدهارا للعمران الذي انطلق في مسيرة لم تنقطع آثارها. وتزامن الازدهار الاقتصادي مع الازدهار العلمي والثقافي لدفع عجلة الحضارة العمرانية، فتنقلت العلوم و التجارب و الموارد عبر شبكات التنقل و ساهم العلم في الاكتشافات العلمية و المسالك البحرية و فتح آفاقا لاستثمار تلك الفوائض المتكاثرة في تحسين وسائل العمل و توظيف طاقات جديدة.

فازدهرت المدن وازدهرت عمارتها وفنونها وصناعتها، كما استقطبت أفواجا متتالية ومتزايدة لم تنقطع من البشر الذين وجدوا في الازدهار المديني خير سبيل لترقية اجتماعية واقتصادية وثقافية مجسدة بهجرات كثيفة من الأرياف إلى المدن.

وعلى المستوى الاجتماعي، أصبحت المدن الجديدة مجالات واسعة التقت فيها كل أصناف البشر وتطورت التركيبة الاجتماعية للمدن من التركيبة البسيطة المبنية على العلاقات الأولية أي القرابة إلى تركيبة معقدة تجاوزت تلك الهيكلة وأصبحت تضم فئات متنوعة ومتعددة تشترك في وحدة المجال. وهكذا ترتسم الأسس الأولى لهيكلة مجتمع أكثر تعقيدا بدأ يتحرر من العلاقات البسيطة والأولية ويتجه نحو استيعاب علاقات أكثر تعقيدا وهو ما يسمى بالعلاقات الثانوية.

وهذا التحول الاجتماعي ينعكس بتحول سياسي على أنظمة الحكم التي تجاوزت الأنظمة العائلية محاولة تصور أطر أكبر تستوعب العلاقات المعقدة الجديدة.

هذا بصفة عامة بينما لم يتم هذا التحول من القرية إلى المدينة الحرة في وقت واحد ولا بنفس الشكل في كل مناطق العالم.

فكما أن الشرق كان رائدا في الحضارة الإنسانية الأولى، فكذلك كان بالنسبة لهذا التحول من المدينة الأولى إلى المدينة الحرة أو من الركود إلى الازدهار العمراني. طبعا هناك كثير من العوامل تفسر هذا:

فالوضع الجغرافي للجزيرة العربية كهمزة وصل بين منطقتين زراعيتين آسيا وأوروبا مهدها لهذه الوظيفة علاوة على التغيرات المناخية وتصحر أكبر بقاع الجزيرة.

ثقافيا وتاريخيا، ساعدت التقاليد التجارية التي كانت تمارسها القبائل العربية قبل الإسلام. ويبقى أهم هذه العوامل هو ظهور الإسلام الذي شجع هذا البعد الإنساني والعالمي. وبقيمه القائمة على تحرير الإنسان من هيمنة الإنسان وعلى مبادئ العدل والحق الساعية لحماية مصالح العباد والبلاد، ساعد على تفجير الأوضاع القديمة، الراكدة والقائمة على الهيمنة والسيطرة. فتحررت المدن بسرعة وتحررت الأرياف من هيمنتها وسيطرتها وتحرر المجتمع من القيود الإنسانية، فشقت سبل الاتصال والتبادل والدعوة والتي كانت كفيلة بجلب الخيرات والمعارف ونقلها من مكان إلى آخر، فازدهرت بذلك المدن وعمرانها وفنونها وازدهرت العلوم والثقافة وازدهرت الصناعة والاكتشافات العلمية، ونالت المدن مكانة في الفكر الإسلامي على غرار ما ناله الاجتماع البشري.

كما نالت المدن والازدهار العمراني قسطا وافرا من الحضارة الإسلامية.

على مستوى الاجتماع ولو أنه تم في المدينة الإسلامية استيعاب الهياكل التقليدية القائمة على القرابة، فقد تم تجاوزها بهيكلة متحررة من كل القيود البشرية قادرة على استيعاب كل التركيبة المعقدة الجديدة، وفق المشروع الاجتماعي الإسلامي الذي يعتبر المجتمع البشري في علاقته بالخالق الواحد. أسسه نابعة من شريعة الخالق ومنسجمة مع فطرة الإنسان ليتساوى فيه أفراد المجتمع ويسود عليهم الحق والعدل. بعده إنساني وعالمي يتجاوز كل الهياكل المقيدة والمحدودة. وهذا ما انعكس إيجابيا على مؤسسات الحكم.

بينما لم يتم هذا التفجير في الغرب وهذا التحول من أنظمة راكدة إلى أنظمة أكثر حركية وتحرر، إلا بصورة متباينة بين المناطق ابتداء من القرن 11 م.

فبينما ازدهرت المدينة في الشرق منذ ظهور الإسلام في القرن 7 م. كان الغرب نتيجة انشطار الإمبراطوريات القائمة على الزراعة، يتخبط في أنظمة راكدة وهي الإقطاعية.

ساعد الاحتكاك بالحضارة الإسلامية التي عبرت عن طريق المتوسط على ذلك التحول ومكنت الحروب الصليبية الغرب من نقل العلوم والمعارف. وتمكن التجار الذين كانوا منبوذين في المجتمع الغربي سابقا من ترقية قوتهم حيث استفادوا اقتصاديا وماليا من الحروب والصليبية إذ أقرضوا الإقطاعيين وباعوا لهم معداتهم وسفنهم فساعدوا بذلك على تفجير الوضع وبدأت تشهد المدن الإيطالية نوعا من الازدهار بتحررها من قيود الريف الراكدة وهيمنة النبلاء وملاك الأرض. فمن القرن 11 م إلى القرن 16م. كان الزمن كافيا لنضج ذلك التحول وانتشاره عبر كامل أوروبا، فازدهر العلم وظهرت الجامعات ومع تزايد الفوائض الاقتصادية ازدهرت الاكتشافات البحرية والجغرافية والعلمية وازدهرت الصناعة والمدن والعمارة والفنون. وارتفعت الاجتماعات البشرية و بدأت تتعقد أمورها وتتجاوز الهياكل التقليدية، ما انعكس على أنظمة الحكم، فبدأت أولى التصورات والنظريات لمجتمعات مدن، فظهرت البلدية وفكرة المواطنة وبدأت تنحصر دائرة السلطة العائلية وتراجعت السلطة الملكية أمام المؤسسات التمثيلية للمجتمع. وتحرر الإنسان من قيود الهيكلة العائلية ومن العبودية ليسقط في قيود الهيكلة

الطبقية، حيث أصبحت المصلحة والمنفعة المشتركة تحتل الصدارة في التنشأة وقيم الهيكلة الإجتماعية.

تزامن هذا النمو الذي جعل أوروبا تسعى لاقتحام أسواق جديدة (مصادر الموارد وأسواق للتجارة) مع بداية أفول الدولة الإسلامية التي انشطرت شظايا (وذلك راجع لعوامل كثيرة نوردها في التجربة الإسلامية).

فتمكنت أوروبا من التحكم في كثير من المسالك واللجوء إلى اقتحام الأسواق العالمية بقوة الجيش، فبدأت أولى الحركات الاستعمارية مع بداية القرن 17. ومن ذلك الوقت بدأت ترتسم هيكلة جديدة للعالم وفق خط عمودي تحتل فيه الدولة المسيطرة والمهيمنة (الاستعمارية) الصدارة وتأتي الدولة المستعمرة والتابعة في الأسفل.

وهذا ما ساعد أوروبا من تكثيف قدراتها الاقتصادية على حساب الدولة التابعة. والمستعمرة، فتزامن ارتفاع مكثف للفوائض مع ترقية سريعة للعلوم، فتوفرت شروط تفجير وضع جديد يشق طريقا جديدا أمام الإنسان باكتشاف طاقات جديدة عجلت حركة الاقتصاد والإنتاج وهي الثورة الصناعية.

1-3- الثورة الصناعية: من المدينة التجارية إلى المدينة الصناعية

باكتشاف طاقات جديدة، توسعت أفق الصناعة وتوسعت دائرة المعارف وبلغت التجربة الإنسانية النابعة من تراكم ممتد ومتصل للمعارف والتجارب ذروة من النضج.

انعكست الطرق الجديدة في استخدام وتحويل الطبيعة وانعكست الطاقات الجديدة بالتحول على جميع المستويات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية و العمرانية.

وكلما سعى نحو التحرر تطور الإنسان، وبلغ درجات أكبر من تعقيد الأحوال. فقد تحرر الاقتصاد من سلطة الأسواق واستبدلت طاقة الإنسان والحيوان والنبات بطاقة الفحم (البخار) ثم البترول ثم أخيرا النووي واستبدل جهد الإنسان العضلي بجهد الآلة والمحرك.

ارتفعت القوة الاستقطابية للمدن التي توسعت وتعقدت أحوالها، كما تعقدت بنية التجمعات البشرية وازدادت أحجامها وارتفعت وتيرة نموها. وهذا ما انعكس على تحول الأنظمة الاجتماعية. كما تحول النظام الديموغرافي من النظام الطبيعي الراكد إلى نظام حديث يتميز بكثرة الولادات وانخفاض الوفيات وذلك إثرى التحسن في الظروف الصحية مما جعلنا نسجل في تلك الفترة تزايدا سريعا لنمو السكان وارتفاعا في أحجام سكان المدن.

كما فجرت الثورة الصناعية حركة عمرانية قوية جاءت في مرحلتين، في البداية في شكل تمركز مكثف حضري حول الأحواض المعدنية أي بمقربة من مصادر الطاقة والمادة الأولية وسرعان ما جاءت التطورات التي عرفتها الاتصالات والمواصلات (وخاصة الحديدية) كي تلغي حتمية المواقع، فيتحرر الاقتصاد إذ أصبح بفضل المواصلات والاتصالات الحديثة من السهل انتقال المواد الأولية والطاقوية والرساميل والبشر.

وهكذا من التمركز، نشهد عملية انشطار حضرية وظهور مدن كثيرة وجديدة تتربع فوق الأقاليم التي كانت سابقا أقاليم زراعية علاوة على النمو السريع الذي شهدته الأنوية الحضرية القديمة والتحولات التي شهدتها القرى التي ارتقت إلى درجة مدن.

وخير دليل على هذه الظاهرة من الناحية الكمية هي الأرقام الإحصائية التي يتداولها الباحثون وتعكس النمو الحضري السريع والمتزايد الذي فجرته الثورة الصناعية في شكل نمو لمدن قديمة أو في شكل ظهور مدن جديدة. أما أهم الفروق التي نسجلها بين التجربة الصناعية في الغرب والتجربة في الدول النامية، هو أن الثورة الصناعية في الغرب وليدة أوضاع وشروط موضوعية نضجت بانسجام بين الظروف التاريخية والوسط بينما سجلت بدايتها في العالم الشرقي في جو التناقضات الاجتماعية والإقتصادية التي خلفها الاستعمار (وهذا ما سنفصله في فقرات أخرى).

1-4- الثورة الحضرية: من المدينة الصناعية إلى المجمّع الحضري

طبعا تزايدت الحركة الحضرية وأصبحت المدن تحتل الصدارة. فقد فجرت المدن الجديدة بأحجامها المرتفعة وبوتيرة نموها السريعة ليس فقط الهياكل القديمة المعمارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وإنما كذلك الهياكل الإقليمية. وكذلك استقطبت المدن سكان الريف الذين لم ينقطع توافدهم على المدن كأطر للترقية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتربعت المدن على الأقاليم الريفية.

فاصطدم الإنسان بهجوم رهيب للحضرية، اقتصادا واجتماعا وثقافة وعمرانا، توسعت المدن لتتلاحم ببعضها البعض وتشكل هياكل مبنية وحضرية معقدة تشمل وتضم مجموعات حضرية متلاحمة. وتوسعت المدن على حساب أقاليمها الريفية المحيطة بها، وبدأ أفول الريف. ومع غياب النقيض وهو الريف غابت المدينة. وحلت الثنائية (المركز والإطار) محل ثنائية المدينة والريف.

واستبدل مصطلح المدينة بالمجمّع الحضري وحار اللغويون في تسمية التجمعات الكبرى بأحجامها الكبرى التي تتركب من التحام المدن في بريطانيا وأمريكا، سماها البعض منهم «التجمعات الحضرية» وسماها الآخرون العملاقة ومازال الجدال قائما.

أصبحت الهياكل العمرانية القديمة غير قادرة على الاستيعاب، فظهرت أمام هذا التوسع الرهيب، مشاكل الحدود والروابط والمقاييس التي تنعكس كذلك على مستوى الهيكلة السياسية والإدارية.

وظهرت أحداث نابعة من الحضرية مثل الخط الحديدي الذي يشق إقليما زراعيا وما ينعكس عنه. تعددت هذه الأحداث و تكررت وانعكس عنها بروز حياة حضرية.

فسادت الحضرية، عمرانا وثقافة على كل الأنماط التي عرفها التاريخ البشري ما جعل بعض المفكرين يرى في الحضرية بنية فوقية تحتل الصدارة ضمن محركات التحول البشري.

واقتنع الكثير بضمها إلى الثورات التي تعبر عن منعطفات كبرى في مسار العمران البشري فدخلت الثورة الحضرية قاموس التاريخ.

طبعا في مسيرة الإنسان نحو التحرر، استطاع أن يتحرر من الكثير من الهياكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القديمة.

فمن الروابط الأولية إلى الروابط الثانوية ثم إلى روابط المصلحة والتعاقد. فمن مجتمع القرابة إلى مجتمع التعاقد ومن المجتمع البسيط إلى المجتمع المركب ومن التضامن الآلي إلى التضامن العضوي ومن الضمير الجمعي إلى قيمة العقد.

فمن المدينة العائلية توجه نحو تركيبة الأمة والدولة ويتجه الآن إلى هيكلة أكبر تفجر الحدود الوطنية وأفق الدولة الإقليمية إلى تجمعات بشرية وسياسية أكبر وأعقد. وبينما كانت الأحجام سابقا صغيرة وبسيطة التركيب أصبحت الآن كبيرة ومعقدة التركيب. تباعدت المسافة بين دائرة القرار والشعب، فظهرت إشكالية المشاركة والتمثيلية. وبعدما كانت الممارسات التقليدية المتداولة بين الناس والمتوارثة عبر الأجيال قادرة على تجسيد وفاق اجتماعي وثقافي، تعقدت الأمور بتراكيب تجمع مجموعات ثقافية واجتماعية متنوعة ومتعددة. فطرحت إشكالية العمران وفق اهتمامين أساسين.

محاولة فهم واستيعاب ميكانيزمات سيرورة وحركية العمران، ومحاولة ضبط أنسب الصيغ والأشكال لاستيعاب الزحف الحضري.

وهذه الإشكالية ما زالت تثير حركة فكرية قوية وتثير جدالا واسعا بين أوساط المفكرين والمنظرين المهتمين بالعمران الذي مازال يوما بعد يوم يفاجأ البشر بتحدياته.

واقتناعا بتعقد الظاهرة العمرانية تتسع دائرة الفكر العمراني الآن لتضم كل المحاور المتفاعلة في الإنتاج العمراني والتي تتجاوز الأبعاد المادية والشكلية لتساهم كل العلوم الإنسانية في ترقية هذا الفكر.

وقد مر الفكر العمراني في مسيرته على غرار كل الأوضاع البشرية بتحولات هامة وعميقة.

2- الظاهرة الحضرية وإشكالية العمران المعاصر

المظاهر الأولى للتحول العمراني أثر ظهور الثورة الصناعية، تجسدت في ظاهرتين: التمركز، ثم بعد ذلك الانشطار.

كانت أولى الانعكاسات على العمران هو تمركز المدن في مناطق مصادر الطاقة والمواد الأولية. فاكتشاف مصادر طاقوية جديدة ونضج خبرات صناعية أدى إلى استقطاب المواقع التي تتوفر فيها تلك المصادر الحيوية العمرانية. فكان التموقع أي اختيار الموقع يلتزم وينضبط بحتمية مكانية. وهذا ما تعكسه خريطة المدن في بداية الثورة الصناعية.

وسرعان ما حررت الوسائل الحديثة للاتصال والنقل والمواصلات وخاصة منها ظهور الخطوط الحديدية التموقع (Localisation) من حتمية المكان، إذ أصبح ممكنا وسهلا نقل الأفراد والأملاك ومنها المواد الأولية والطاقوية.

وفي هذا الشأن، تحولت ظاهرة التمركز إلى ظاهرة انشطار. حيث انتشرت المدن في كل الأقاليم ونمت أحجامها وبوتيرة سريعة.

ومنذ ذلك الوقت، والزحف الحضري مستمر، يجسده تكاثر المدن والنمو السريع لأحجامها وتوسعها السريع وامتدادها الرهيب.

وتحولت الأنظار منذ ذلك إلى الظاهرة الحضرية كظاهرة جديدة وسائدة.

وهي تنحصر في التحولات التي تشهدها الهياكل العمرانية فقط بل تمتد إلى كل التعابير والتظاهرات الحضرية أشكالا ومضامينا وفي انتشارها وتوسعاتها وتأثيراتها.

وكل المعطيات الإحصائية المتداولة بين الاختصاصين تعكس الأحجام المتنامية بسرعة للمدن والحركية العمرانية الفائقة السرعة.

أما الأحجام (والتي تقاس غالبا بالأحجام السكانية للحواضر وبالكثافات السكانية)، فترجع أساسا إلى كل التحولات التي يشهدها الوضع السكاني والديموغرافي (ارتفاع في المواليد وانخفاض في الوفيات) وإلى القدرة الاستقطابية للمدن الحديثة (والراجع إلى انتعاش اقتصادها) والتي تنعكس عنها الهجرات السكانية الكثيفة. أما الوتيرة الحركية السريعة، فهي راجعة إلى حدة التفاعل بين مكونات هذه التراكيب العمرانية المعقدة فيما بينها وبين هذه التراكيب وبين محيطها.

أي تفاعل أفقي بين أجزاء المركب العمراني (من اجتماع واقتصاد وسياسة وثقافة وعمارة) وتفاعل عمودي بين المستويات المتباينة للتراكيب العمرانية من أصغرها إلى أكبرها وكل واحدة تتفاعل مع التراكيب التي تحويها بمثابة محيطها.

وقد اقتصرت الإشكالية العمرانية الأولى في بداية هذه التحولات أي في القرن 19، على فشل الهياكل القديمة (أي ما قبل الصناعية) في استيعاب الأوضاع الجديدة وما انعكس عن ذلك من تحول للتركيبة الاجتماعية وتدهور للأوضاع الصحية في المدن الصناعية.

تركزت اهتمامات المذاهب الحديثة في العمارة والعمران على الجوانب الصحية والمادية والأبعاد الوظيفية.

فضيق رؤيتها لم يستوعب تعقد وحركية التراكيب الجديدة وذلك باعتماده على المقاربة النموذجية والمقاربة الجزئية المعتمدة أساسا على الوظيفية.

كما أنه فشل كذلك في سد الفراغ الذي تركه تهميش الإرث الجماعي المتمثل في الهياكل التقليدية بمجموعة القيم والخبرات والمعارف التي كان يتداولها المجتمع والمتوارثة عبر الأجيال والذي كان يجسد الوفاق الاجتماعي.

ولم يقدر على استيعاب التراكيب الاجتماعية والثقافية الجديدة حيث تباعدت المسافة بين الحاكم والمحكوم وبين صاحب القرار وبين مصمم المدينة وساكن المدينة...الخ.

وجاءت الحلول التي جسدتها إنجازات وأفكار المذاهب الحديثة في العمارة والعمران في شكل نماذج طوباوية نابعة من مخيلة المهندس وبعيدة عن الواقع. قائمة على تصور طبيعي وبيولوجي وآلي للإنسان والعمران، فسادت فيها الوظيفية الآلية.

واعتمدت فيها أشكال انشطارية للمجال تتعدد مراكزها حسب تعدد الوظائف وتحتل فيها الفراغات الحرة والطبيعية مكانة هامة. فنتجت مجالات تتركب من مدينة النوم (الإقامة) ومدينة العمل ومدينة الترفيه ترتبط فيما بينها بشبكة من الطرق السريعة.

فتهميش الإنسان بكل أبعاده من تلك التصورات انعكس على العمران الحديث بآثار سلبية نفسية واجتماعية خاصة (وهذا ما أثبتته الدراسات) يجسدها نمو ظواهر حديثة في الأوساط الحضرية

كالإجرام والانحراف والانتحار، ويكفي غضب وتمرد سكان التجمعات السكنية الكبرى (Grands Ensembles) دليلا على فشلها وهو ما زاد من تعقيد إشكالية العمران المعاصر.

بينما تزيد الحضرية من توسعها ونموها، فالمدن تتكاثر وتنمو بسرعة وتتوسع حتى تلاحمت وبدأت تظهر تراكيب عمرانية جد معقدة.

سميت بمجمعات حضرية (Agglomérations)

سادت الحضرية أشكالا ومضامينا، بنايات ورموزا على كل الأوضاع.

زحفت المدن وتوسعت على حساب الأقاليم الزراعية السابقة وبذلك تحضرت الأقاليم. وغاب الريف وفي غياب الريف غاب نقيض المدينة وفي غياب النقيض غابت المدينة لتفسح المجال لأسماء أخرى تغطي الهياكل المعقدة الجديدة. واستبدلت ثنائية الريف والمدينة بثنائية المركز والإطار... الخ. وعلى ضوء وتحت ضغط كل هذه الأوضاع وأهمها الزحف الحضري المستمر والسريع تمخضت إشكالية العمران المعاصر.

وهي تتمحور عموما وأساسا حول اهتمامين:

محاولة فهم وإدراك ميكانيزمات وسيرورة الحركية العمرانية. ومحاولة ضبط أنسب الصيغ والأشكال لتأطير التمدن السريع.

وتتفرع عن هذه الإشكالية العامة إشكاليات متعددة على غرار تعدد المواضيع والمشاكل:

إشكالية الهيكلة، وإشكالية التنظيم وإشكالية التوسع وإشكالية المراكز التاريخية وإشكالية المركزية وإشكالية الأطر أو المحيط وإشكالية الإبداع المعماري... الخ.

وتحت ضغط الواقع العمراني المعاصر المعقد، ولتغطية كافة الجوانب والأبعاد التي تتفاعل في الإنتاج العمراني تساهم مختلف العلوم الإنسانية مع ميدان العمارة في طرح إشكالية العمران، وتتعدد الإشكاليات كذلك على غرار تعدد الميزات المنهجية والمعرفية والموضوعية لكل منهج وحسب تعدد الاهتمامات. (وهذا ما سنراه بالتفصيل في الموقف الفكري).

إذا كانت تلك هي الإشكالية للعمران المعاصر، فإن المشاكل العمرانية المعاصرة تختلف كذلك حسب الميزات الخاصة لأقاليم العالم وتلك الميزات إنما هي ناتجة عن الفوارق والتباين الاقتصادي والاجتماعي بين مجموعات الدول في العالم.

إذا كان التصنيع وما انعكس عنه من تحولات عميقة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والعمراني عموما قد تمخض في الغرب وفق سيرورة طبيعية أي أنه تمخض عن نضج لكل الظروف المتراكمة في نفس البيئة.

فإن التصنيع وما تزامن معه من تحولات قد تم في الدول المستعمرة تحت ضغط الطلب الخارجي في المركز (المركز). فقد تزامن مع تناقضات وفوارق اجتماعية اقتصادية زادت من حدتها التبعية الاقتصادية حتى بعد حصول تلك الدول على استقلالها.

فقد تطلب التصنيع في الغرب اقتحام أسواق إنتاجيه للطاقة وللمواد الأولية واستهلاكية للفوائض الإنتاجية.

وقد ساعد هذا الاقتحام العنيف أي (بالقوة) الطمع الاستعماري ونتجت عنه هيكلة لدول العالم عمودية حيث تهيمن دول الصدارة وهو ما يتداول بمصطلح (دول المركز) على الدول التابعة (الإطارية).

ووفق هذه الهيكلة، كان الدور المخول للدول المستعمَرة هو خدمة المصالح الاقتصادية للمركز. فاستوردت كل مشاريعها من المركز وجاءت تحولاتها تحت ضغط الطلب الخارجي وانعكاساته.

فكانت وظيفة الشبكة الحضرية في الدول المستعمَرة هي العبور. فهي محطات تعبر عبرها المواد الأولية والطاقوية إلى مصانع المراكز، كما أن هيكلة صناعتها كانت على غرار ذلك تعتمد على الصناعة المنجمية. وكانت السوق تتجاوب مع الطلب الخارجي وليس مع الوضع المحلي. كما مست تلك السياسة المجال الريفي والهيكلة العقارية كذلك... الخ. وانعكس ذلك سلبيا بتناقضات إقليمية بين الخط الساحلي والداخل وبين عالم الأرياف والحواضر وفي الحواضر بين الأحياء الرفيعة والأحياء المهمشة (القصديرية).

وتختلف الهجرة من الأرياف إلى المدن في الدول المستضعفة جوهريا عن ميزة الظاهرة في المركز. بقدر ما أن الهجرة من الريف إلى المدن ناتجة في المركز عن انتعاش سوق المدينة وقدرتها الاستقطابية، فهي في الدول المستضعفة ناتجة عن إفقار الريف وهروب سكانه. والتباين بين وتيرة نمو سوق المدينة وبين وتيرة توافد السكان

إليها ينعكس سلبيا بنمو الأحياء المهمشة (البيوت القصديرية) والبطالة...الخ.

وقد جاءت أهم التحولات حتى بعد الفترات الاستقلالية انعكاسا لضغوط التبعية الاقتصادية والفكرية لدول المركز.

فالصناعة الثقيلة على حساب الزراعة والتجهيزات، مشاريع الهيكلة الإقليمية والريفية، الأزمة المالية، الأزمة الغذائية... الخ كفيلة بتشخيص مدى تأثير التبعية على التحولات الداخلية وما ترتب عنها من تراكم للفوارق بين الأرياف والمدن وبين مناطق الإقليم ومن اكتظاظ للمدن... الخ.

فعلاوة على كل الظواهر العامة التي تشهدها مدن العالم، فإن تراكم الفوارق والتناقضات الاقتصادية والاجتماعية، يميز إشكالية العمران في الدول المصنعة عن إشكالية العمران في الدول النامية.

3- المواقف الفكرية أو تطور الفكر العمراني

تواجد الفكر العمراني في العصور السابقة وفي مختلف الحضارات وتتجلى نماذج منه في أعمال أفلاطون وفيتروف مثلا في اليونان وأعمال المسلمين ومنم الفرابي وابن خلدون وغيرهم. وكانت مصادر ذلك الفكر قديما أساسها الفلسفة.

وقد ساهم في إثراء ذلك الفكر في عصر النهضة الأوروبية معماريون وفنانون ومنهم ألبيرتي الإيطالي، ركزوا جهودهم على الجانب الفني والجمالي للعمارة وساهم كذلك مهندسون أمثال فوبون ركزوا على التخطيط العقلاني للمدن.

طرأت أوضاع جديدة من جراء التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعمرانية إثر الثورة الصناعية في القرن 19 انعكست كذلك على الميدان الفكري.

أهم هذه التحولات هي تعقد التراكيب الاجتماعية الجديدة وحدة التفاعلات التي انعكست عنها حركية مكثفة وسريعة.

فسرعة نمو المدن وتكاثرها وانتشارها السريع أدى إلى تفجير الهياكل القديمة، كما أن المدن أصبحت أطرا مجالية لتراكيب اجتماعية معقدة، فامتدت المسافة بين الحاكم والمحكوم وبين المقرر والمسير والمستعمل للمدينة، بينما كانت المسافة في الأنظمة التقليدية البسيطة جد قريبة بين الحاكم والمحكوم وكانت القيم والمراجع والمعارف المتداولة في المجتمع المتوارثة عبر الأجيال قادرة على تجسيد وفاق اجتماعي واستيعاب كل الأوضاع. فقد كان

يكفي لمن ينوي بناء مسكن أن يحدد حجم الأسرة فقط، بينما يقوم الحرفي بالباقي لأن مراجع وقيم الإنشاء والتصميم معروفة ومشتركة بين المنتج والمستعمل وكلاهما من نفس البيئة ويتداولان نفس المراجع. وهكذا أدى تفجير الأوضاع والهياكل التقليدية ومراجعها إلى طرح إشكالية التأطير والهيكلة وإشكالية التصميم ومراجع ومصادر التصميم حسب مستجدات الأوضاع الجديدة. وهذا ما يدور عليه النقاش في هذه العصور الأخيرة بين المفكرين والمنظرين في العمران. وقد مر الفكر العمراني منذ القرن 19 أي بعد الثورة الصناعية بعدة مراحل.

انطلق أساسا وفي البداية من موقف سياسي تجاه تدهور الأوضاع الصحية في المدن إثر توافد جماعات العمال المهاجرين من الريف نحو المدن، وقد اشترك في هذه المواقف التنديدية كل من الفلاسفة ورجال العلم والطب والدين والمعماريين.

ومن هذه المواقف بدأت ترتسم أسس التوجهات الفكرية في شكل تيارات. وسرعان ما ظهرت للوجود أولى التيارات الفكرية الحديثة في ميدان العمارة والعمران واقتصرت في بدايتها على المعماريين.

تشترك كلها في بعض الخصائص ومنها التصور النموذجي خلافا للتصور الحركي للسيرورة ومنها كذلك مصدر التصميم الذي بقي في غياب المراجع مخيلة المصمم، وجاءت حلولها طوبوية تغيب فيها معطيات الواقع وسمة الواقعية. كما تشترك كلها في النقد

والغضب على المدينة الصناعية؛ بينما تختلف أساسا في جوهر النقد وفي التوجه الإيديولوجي.

فمنها من انتقد المدينة الصناعية لزوال الهياكل العضوية للمدن التقليدية منها وترقب الحلول في استرجاع قيم التاريخ والثقافة والماضي. وهم من أطلق عليهم أصحاب التيار الثقافي، بينما انتقد آخرون غياب الطبيعة من المدن الصناعية ورأوا في استرجاعها حلا، وأطلق عليهم أصحاب التيار الطبيعي.

كما انتقد آخرون عدم تماشي المدينة مع التقدم الصناعي والتكنولوجي فعابوا على المدينة الصناعية تخلفها وأرجعوا مرضها وعلتها إلى ذلك التناقض، وهم الفئة التي تسميها (شووي) بالتقدميين.

فبينما عرف التيار الثقافي ازدهارا في ألمانيا والنمسا تحت ريادة أحد دعائمها (كاميو ـ ستي) صاحب كتاب فن إنشاء المدن (1843ـ1903) وقد كان له تأثير على إنجازات المدن ـ الحدائقية في بريطانيا لرائدها (ابنزير هوارد) (1850ـ1928) فقد عرف التيار الطبيعي ازدهارا في أمريكا تحت ريادة المعماري (فرانك لويد اورايت) (1869ـ1959)

ومن دونها يبقى التيار التقدمي هوصاحب أكبر قسط من التأثير. فسرعان ما انضم إليه جمع من المعماريين ليأخذوا إثر تنظيم المؤتمرات الدولية للعمارة الحديثة اسم المذهب الحديث في العمارة. وقد كانت توصيات مؤتمر أثينا (1928) بمثابة ميثاق العمارة الحديثة نشر تحت عنوان ميثاق أثينا سنة 1933.

وهذا المذهب هو الذي نال أكبر مكانة وكان له كبير التأثير على الفكر والإنتاج المعماري للعصر الحديث.

ومن أهم مبادئه اعتبارا لتدهور الأوضاع الصحية:

ـ النقاء المادي، إذ يعتبر الهواء والنور والاخضرار من ضروريات الحياة في المدن.

ـ عالمية الإنسان حيث يتشابه كل بني الإنسان في الخصائص البيولوجية والطبيعية. (البعد المادي والوظيفي للإنسان).

وعلى غرار ذلك، صممت المدينة حسب أبعادها الوظيفية على غرار الوظائف البيولوجية للإنسان، النوم والعمل والترفيه.

ـ وصممت المساكن والأشكال موحدة النوع متشابهة ومتكررة الشكل على غرار الإنسان الموحد النوع.

ـ جرد الفن من كل تنوع واعتمد على أدوات وتعابير تجريدية وخاصة منها الهندسية.

ـ جاءت تصاميم المدينة في شكل انشطاري للمجال متعدد المراكز يتركب من قطاعات فراغية ووظيفية (مدينة العمل ومدينة الإقامة ومدينة الترفيه).

ويعد هذا المذهب حامل مشروع العصرنة وهي تعني لديه التحرر من الهياكل التقليدية والفنون الكلاسيكية ومن القيود البشرية.

فاستبدلت المراجع الثقافية والإنسانية بمرجع مشترك جديد وهو الطبيعة التي بقيت مصدر الإبداع ومرجع القيم.

وهكذا تبلورت المفاهيم حول الأبعاد الوظيفية والطبيعية واعتبر الإنسان كذلك في بعده الطبيعي البيولوجي.

وجاء مفهوم الشكل مرتبط بحتمية الحاجة من الإبداع وظروف الإبداع. فالحاجة هي الوظيفة التي يمليها قانون الطبيعة والظرف هي الأدوات والوسائل التي يوفرها المحيط (الزمني والمكاني) وهي الكفيلة ببلورة حتمية للشكل.

وقد تندمج هذه الفلسفة في الإطار العام الذي ساد مختلف العلوم في القرن 19 حيث كانت تنطلق من مبدأ السيادة المطلقة للطبيعة وتحتل الصدارة فيها العلوم البيولوجية والطبيعية التي كانت مصدر المفاهيم للعلوم الأخرى وتنطلق في معالجتها للظواهر من مبدأ الحتمية.

وكذلك ذهبت نظرية داروين في التطور وفرويد في التحليل النفساني والنظريات التقليدية في الجغرافيا البشرية... إلخ.

وينقسم المبدأ الحديث إلى تيارات منها الوظيفية والإنشائية. كما يلقب غالبا بالمذهب العقلاني.

وإذ تعتبر الأولى البعد الوظيفي أساسا في التصميم تعتبر الثانية البعد الإنشائي أساسا... وقد تراكمت الانعكاسات السلبية والتناقضات التي خلفتها تلك الهياكل والتصاميم كي تنعكس سلبا على المجتمع والأفراد بظهور أزمة التجمعات السكنية الكبرى. ومازالت تلك التجمعات حتى الآن مصدر القلق والشغب الاجتماعي في فرنسا وفي كثير من الدول.

وقد بدأت تظهر للوجود منذ الستينيات أفكار جديدة تتهيكل في شكل تيارات جديدة أخذت اسم (ما بعد الحديث).

وهي نتيجة نقد وغضب على الإنتاج العمراني الحديث وانعكاساته السلبية على المجتمع الإنساني ونتيجة توجه جديد للعلوم الإنسانية. وقد ساهمت المدرسة البنيوية في ذلك باكتشافاتها وما انتهت إليه أعمال ليفي استروس، قلبت المفاهيم وفتحت آفاقا منهجية جديدة لعلوم الإنسان.

تزامن ذلك مع بداية انهيار مشروع العصرنة الليبرالي وأزمة الرأسمالية التي أطرت واستوعبت الإنتاج الفكري والإبداعي الحديث.

وتزامن مع أزمة الإنسان والثقافة التي بلغت دورتها في وسط همش فيه الإنسان وهمشت رموزه. وتزامن مع بروز إشكالية الأصالة والعصرنة.

وأهم توجهات هذه التيارات هي:

- إعادة الاعتبار للإنسان الذي طالما همش أمام الطبيعة والآلية ليصبح الإنسان مصدر التقييم ومرجع الإبداع.
- حولت الأنظار إلى أنظمة التصور والإدراك الإنساني للأشياء على حساب الأشكال الطبيعية والموضوعية للأشياء (الحتمية الطبيعية).
- إعادة الاعتبار للواقع على حساب الخيال، فاستبدلت المخيلة بمعطيات الواقع وهكذا توجهت النظريات المعمارية من العلوم الطبيعية إلى علوم الإنسان لتستقي منها مفاهيمها ومناظيرها ومناهجها كعلم النفس والاجتماع واللسان والتاريخ...

فمن هذه المناهج، التي تهتم بالإدراك الإنساني للفراغ والمكان (مدرسة كيفين لينش) 1918 ومنها التي تهتم بالمراجع الزمانية والمكانية (المدرسة الإيطالية) ومنها التي تهتم بالجوانب الاتصالية واللغوية... الخ.

وأبعد من هذا واعتبارا لعقدة الأوضاع الإنسانية، بدأت تدخل مختلف العلوم الإنسانية شيئا فشيئا دائرة العمران ويرجع هذا في المنطلق إلى أعمال مدرسة شيكاغو التي فرضت موقعها في الميدان العمراني. وهكذا تبلورت اختصاصات متعددة للعلوم الإنسانية، تهتم بموضوع العمران عموما ومنها علم الاجتماع الحضري وعلم النفس (المجال)... الخ.

وإذ هي تشترك كلها في الإشكالية العامة للعمران المعاصر كونه إنتاجا لتفاعل تلك الأبعاد كلها فيما بينها، وإذ تشترك كلها في الدراسات النظرية والعلمية للعمران المعاصر، تنفرد كل واحدة منها بميزة موضوعها وما ينعكس عنه من ميزات منهجية ومعرفية، إذ تهتم العمارة أساسا بموضوع المبنى كما يهتم علم الاجتماع بموضوع الاجتماع الحضري، ويهتم علم الاقتصاد بموضوع الاقتصاد الحضري... الخ.

4- مسار الحرية

بتحليل المسار التاريخي للعمران البشري ننتهي إلى خلاصة أن المسار متصل الأحداث وأن كل وضع جديد إنما هو ناتج عن تفاعل معقد ومكثف للإنسان (بكل أبعاده) مع الزمن والمكان ونتيجة لتراكم مستمر للتجارب والمعارف.

وتنعكس عنه تحولات عميقة في الاجتماع والاقتصاد والسياسة أي العمران، بمعناه الواسع كلما بلغ التفاعل والتراكم مستوى معينا وذلك ما هو معروف بمصطلح الثورة، ويبقى هذا الوضع الجديد بكل ما يحمله من تحول متصل بوضع سابق تمخض عنه. فلا يمكن أن ندرك أبعاد التحولات إلا وفق هذا التصور التدافعي (نسبة إلى المفهوم القرآني للتدافع والذي يعبر عنه الفكر المادي بالجدلية) والمتواصل للتحولات الزمنية.

أما عن اتجاهات هذا المسار، فننتهي إلى خلاصة وهي أن الأوضاع في التحولات الزمنية تتجه من البسيط إلى المعقد. وهذا ينطبق على كل الأوضاع مثلما رأينا. وأن الأطر الهيكلية للمجتمعات ولمجالاتها العمرانية تتجه وتنمو من تراكيب بسيطة إلى تراكيب معقدة، وكلما تعقدت التراكيب كلما تكثفت وتعقدت التفاعلات وهذا ما يعقد الظواهر الجديدة، خلافا لبساطة الظواهر السابقة وهذا ما يزيد في وتيرة الحراك والتغير أكثر فأكثر. وهذا المنظور تغطيه بكل دقة واستحقاق النظرية التاريخية الخلدونية.

ومن توجهات هذا المسار ننتهي إلى خلاصة أخرى وهي أن الإنسان في مسار تجاربه يسعى أكثر فأكثر إلى التحرر، فهو يسعى دوما للتخلص من القيود.

وجاءت أهم المنعطفات التاريخية بمثابة تفجير للقيود وتحرر الإنسان منها. وكلما تحرر من قيد سقط في قيد جديد رسمه لنفسه إلى آفاق 2000 والإنسان بعد قطع شوط كبير من مساره مازال هائما يسعى إلى التحرر من القيود التي فرضها على نفسه.

فعلى الصعيد السياسي تحرر أولا من قيود السلطة العائلية ليسقط في قيود المؤسسات، يسعى للتحرر منها ليسقط في قيود مؤسسات تراكيب أعقد.

وعلى المستوى الاجتماعي الاقتصادي تحرر من قيود العبودية البدائية ليسقط في عبودية حديثة تستمد شرعيتها من قانون الأغلبية.

وعلى المستوى العمراني تحرر من القرية لينتقل منها إلى المدينة العائلية ومنها إلى المدينة الحرة ومنها إلى المجمع الحضري، وتبقى كل التجارب التحررية في المسار التاريخي البشري والتي ترفع شعارات العدالة والحرية والمساواة رهينة شرعية السيادة البشرية المطلقة.

فرغم كل الثورات والإجراءات الجديدة التي تسعى لإشراك وإدماج المجتمع في دوائر القرار ومنها كل أشكال المشاركة وهي عموما الديمقراطية يبقى الإنسان رهينة (السيد) أي رهينة السيادة المطلقة للإنسان.

ورغم تحول شكل (السيد) في التاريخ يبقى (السيد) موجودا طالما رضي الإنسان وأعطى الشرعية برضائه لسيادة (السيد).

تحول السيد من المستعبد إلى الإقطاعي إلى الرأسمالي وإلى «الثوري» أو «الحزبي» وفي العصور الحديثة إلى عصور بلغت

فيها تجربة الإنسان التحررية ذروتها، أي عصور الديمقراطية سقط الإنسان رهينة «سيد» حديث ظاهره الأغلبية وباطنه «سيد» لا يختلف جوهره عن الأسياد السابقين الذين بيدهم القوة قوة المال وقوة السلاح وقوات حديثة كقوة الإعلام...

فطالما أن السيادة المطلقة للإنسان هو أساس الحكم، فلا يمكن أن تعكس الأنظمة والتشريعات إلا طموحات الإنسان القوي، وهو السيد الحديث المتحضر الذي يتستر بالأغلبية.

فلا تعكس التشريعات في مجتمعات العدالة (الاشتراكية) قبل سقوطها غير طموحات «السيد» الجديد صاحب الحق المطلق أي أرباب الحزب وإديولوجيته وبيده سلاح السلطة وسلاح المال والسلاح والإعلام أي القوة المطلقة. كما لا تعكس التشريعات في مجتمعات الحرية (الليبرالية) غير طموحات «السيد» الجديد صاحب الحق المطلق بيده مصدر الحياة «المال»، وكأن الحرية تعني في الأولى التقيد بالحزب وفي الثانية التقيد بالمال وكذلك تستمد هذه الحرية معناها وشرعيتها من السيادة المطلقة لآلهة الحزب وفي أخرى لآلهة المال، ويبقى الإنسان مهمشا، مستضعفا، رهينة الإنسان القوي الذي حل محله الإله. فلم يتحرر الإنسان بعد كل هذا الشوط رغم تحول الأشكال والعلاقات والأطر.

وفي آفاق 2000 يبقى الإنسان يتخبط بين مستضعف ومستبد ورغم جدوى الإجراءات الجديدة أي أطر المشاركة الديمقراطية، يبقى فشل التجربة راجع إلى شرعية السيادة المطلقة للإنسان. ويبقى رغم كل الأبعاد الجديدة مشكل المشاركة والعدل مطروحا.

ولا تعاني الجماعات والأفراد لوحدها من هذه القيود، بل حتى المجتمعات الكبرى، كما هو الحال بالنسبة للبلدان التي ما إن تحررت من الاستعمار حتى سقطت في التبعية. وبقدر ما يسعى المستضعف إلى التحرر بقدر ما يسعى القوي إلى الحاكمية المطلقة ويبقى المسار متواصلا والإنسان ساعيا نحو التحرر...

ولما يجد لغز الحاكمية الإنسانية حلا ومخرجا.

5- مشروعية الحل الإسلامي

رغم الشوط السريع والكبير الذي قطعه الإنسان في مسار التحرر، يبقى الإنسان رهينة الهيمنة البشرية التي شرعها لنفسه، ويبقى المجتمع الإنساني رغم تعديه على كثير من العقبات يتخبط في أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية.

ما هي الرؤية التي يقدمها المشروع الإسلامي؟ وما هي إذا أسس المشروع الإسلامي؟

نورد بعض تلك الأسس في شكل ملاحظات وبصور وجيزة.

5- 1- أسس المشروع الإسلامي

الاجتماع

أما فيما يخص الاجتماع، فالتصور الإسلامي يستوعب أطر الروابط الأولية (القرابة) التي تفرض نفسها كهياكل ضرورية تساعد الإنسان على تحديد كونه وضبطه وإدراكه، وذلك من باب فطرة الإنسان. فلا يمكن للإنسان أن يبلغ توازنه ويدرك الكون دون أن تتوفر لديه معالم وضوابط؛ ومن ذلك ضرورة انتسابه لأبوين ولأسرة يأويها إطار مكاني وهو المسكن الذي يؤطر الكون الأول والأساسي للإنسان؛ يكبر هذا الكون ليستوعب في كل المستويات الضوابط التي تحفظ توازن الإنسان في الكون.

وليتصور الإنسان لحظة نفسه بدون اسم ولا نسبة ولا هوية، أي انعدام كل رابطة وكيف ينقلب عليه شبح الضياع.

الإسلام بمشروعه يستوعب هذه الأطر حفاظا على اتزان الإنسان ويؤطرها لكن يتعداها ليبلغ أعلى مستوى التأطير وهو المجتمع الإنساني.

أي أعقد تركيبة بشرية تستوعب كل التباينات بين بني الإنسان. ويبني الإسلام هذا البناء المعقد على مجموع القيم الأخلاقية الإسلامية. علاقة المخلوق بالخالق تحرر الإنسان من كل قيد سلطوي أو تشريعي بشري وهذا التحرر يتجسد بمساواة جميع الناس رغم اختلاف ألوانهم وجنسهم وسنهم وحسبهم ونسبهم وجاههم ومالهم كمخلوقات خاضعة جميعها لخالقها ـ الله تعالى ـ.

ومن خصائص المشروع الاجتماعي الإسلامي الخضوع المطلق للخالق وفي ذلكم تحرر للإنسان، كما سبق ذكره وفي وسطية الأحكام التي تستوعب بشكل عميق الفطرة الإنسانية.

فهو مشروع قائم على استيعاب كل الأطر البسيطة منها والمبنية على القرابة على أنها ضرورة للتعارف إلى بلوغ التركيبات المعقدة منها.

أما مضمون تلك الروابط، فمصدرها القيم الإسلامية التي رسمها القرآن وفصلتها السنة وغايتها هي مقاصد الشرع حفظ الدين وحفظ العرض وحفظ المال وحفظ العقل وحفظ النفس. نكتفي بآية قرآنية واحدة تجمع أسس التصور الإسلامي للتركيبة الاجتماعية.

لقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير». (سورة الحجرات 13)

والمقصود بقوله تعالى «التقوى» ليس فقط لإبراز الأفضلية على أساس التقوى فقط وإنما كذلك للصدارة التي يحتلها شرع الله والاحتكام إلى منهجه في هيكلة هذا المركب البشري المعقد.

كما أن الآية تدل كذلك على تحديد التركيب التدريجي من أبسطها (الزوج) إلى أعقدها مع حصر الغاية من الشعوبية في التعارف فقط. وهذا ما يناسب مفهوم الضوابط.

الاقتصاد:

من الناحية الاقتصادية تنطلق الرؤية الإسلامية من مبدأ أساسي وهو قاعدة الاستخلاف وحسبها فإن الكون ملك لخالقه الله وحده وتكريما لبني آدم سخر لهم هذا الكون ومكنهم في الأرض.

ويتحرر الإنسان من كل قيد وهيمنة بشرية، حيث يتساوى كل الناس (المخلوقات) في حق انتفاعهم بهذا الكون وهو ملك الخالق. كما يتساوى جميع الناس في خضوعهم لشروط وضوابط صاحب الملك. وهكذا يتمتع كل آدمي بحق الانتفاع على أن يخضع الانتفاع لضوابط الملك، وهي القواعد الكلية ومقاصد الشرع التي ترمي كلها إلى رقي الإنسان روحيا وماديا.

فحرية الانتفاع حق شرعي على أن تخضع لضوابط صاحب الملك وتنتهي عند حق الآخرين في الانتفاع.

وفي خضوع الناس كلهم لضوابط المالك (صاحب الملك) النابعة من الحق والعدل المطلق، يتحرر الناس من قيود الإنسان الهيمنية.

ولا داعي للدخول في تفاصيل تلك الضوابط التي هي في شكل قواعد كلية كمفاهيم أساسية وليست كأشكال تامة، بل تترك الحرية لتجسيدها في الزمن والمكان للإنسان. ومن تلك الضوابط تحريم المعاملات الربوية (بشكل عام وفي كل المستويات) كونها مصدر الإثراء العقيم ومصدر الفوارق والسيطرة والاستغلال.

وسد بابها يفسح المجال لترقية قيمة العمل والإنتاج. ويكون من مهمة الإنسان الاجتهاد في تصور الأشكال والصيغ الكفيلة بتجسيد تلك القواعد حسب متطلبات الزمن والمكان.

السياسة

أما المبدأ الأساسي في المنظور الإسلامي للسياسة هو: الحاكمية المطلقة لله أي السيادة المطلقة لشرع الله والحكم (بمفهوم التسيير والتنظيم) رسالة وأمانة يتحملها الإنسان تتعدى الحق لتكون واجبا. وهو يرتبط كذلك بمفهوم الاستخلاف، فكما أن الله هو المالك المطلق لهذا الكون، فهو الحاكم المطلق لقوله تعالى: «إن الحكم إلا لله».

ومن باب تكريم الله لبني آدم أي الإنسان، فقد منحه حق الانتفاع بهذا الكون وحق تنظيم شؤونه فيها وفرضها عليه ليصبحا واجبات.

«لقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا». (سورة الإسراء 70)

«ولقد مكانكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون». (سورة الأعراف 10)

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا». (سورة الأحزاب 72)

«تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا». (سورة الفرقان 1)

ولا شرعية للانتفاع ولا للحكم البشري في الأرض إلا بالالتزام بضوابط الشرع، أي أوامر ونواهي المالك والحاكم المطلق «الله تعالى». وهذه الضوابط ليست أشكالا أو تشريعات فرعية منتهية، بل هي قواعد كلية ومفاهيم أساسية. قواعد الشرع ومقاصد الشرع.

يطالب الإنسان بالاجتهاد دوما في تجسيدها في أحسن الصيغ والأشكال التي تتجاوب مع ظروف الزمن والمكان.

واعتماد حكم الله أصلا ومصدرا لحكم البشر وللتشريع يحرر الإنسان من قيود التشريع البشري والهيمنة والسيطرة البشرية.

ولا يمكن مقارنة شرع الله وهو الحق المطلق بالطريق والسبيل إلى شرع الله وهو نابع من جهد واجتهاد الإنسان الذي يبقى محدودا وناقصا يرمي إلى بلوغ الكمال، لكن دون بلوغه بالاطلاق. فوجبت الشورى ووجب الاجتهاد الواسع الذي يستدعي الأطر الكفيلة باستيعاب التعددية والقادرة على تنشيط حركة الاجتهاد وتبادل الرأي.

هذه ملاحظات عامة مبنية على أسس عامة للمنظور الإسلامي للمشروع الحضاري تبرز مدى تجاوب المشروع الإسلامي مع ما يطمح إليه الإنسان، كيفما كان وأينما كان وهي السعادة. لكن نتساءل ما هو موقف الغرب وواقع المسلمين اليوم من هذا المشروع؟

5- 2- موقف الغرب

أما الغرب: فرغم الشوط السريع والكبير الذي قطعه المجتمع الغربي في مسار التحرر، فهو ما يزال يتخبط في أزمات الهيمنة، السيطرة والاستغلال والظلم والاستبداد ويتخبط في أزمة الأخلاق والمجتمع في أزمة الحضارة وأزمة البحث عن الذات.

مشروع العصرنة الغربي، وإن جاء مشروعا تحرريا، فلقد فجر الأطر التقليدية المبنية على الروابط الأولية (القرابة) وكسرها، فتحطمت دعيمتها وهي الأسرة. وهكذا مع تحرر الإنسان منها نهائيا، فقد حطم أولى الضوابط الأساسية لكونه.

أما الدعيمة الأساسية التي استبدلت تلك الروابط وهي المواطنة فلم تستطع لوحدها تأطير التراكيب الاجتماعية المعقدة الجديدة التي سرعان ما سقطت رهينة القيود المصلحية والقيود الطبقية.

والعقد ذاته كإطار جديد لهيكلة هذه التراكيب الجديدة بقي رهينة السيادة المطلقة للإنسان.

وفي غياب مصدر مرجعي لإنتاج القيم وفي تحرره من المصدر الروحي سقط الإنسان في قيود الطبيعة التي أصبحت مصدرا للتصور وإنتاج القيم.

وهذا ما ساد الفكر عموما في القرن 19 حيث كانت تسود قوانين الطبيعة على كل المفاهيم الأساسية وحسب أبعادها درست وعولجت الظواهر البشرية على أنها حتمية ضرورية للطبيعة (أنظر مذاهب العمارة الحديثة والجغرافيا ونظريات الحتمية، داروين ونظرية التطور، فرويد والتحليل النفساني... الخ).

ومن ذلك صدر المفهوم الوظيفي للإنسان ومفهوم العالمية الذي يعتبر الاشتراك البشري في الوظائف البيولوجية الآلية الطبيعية أساسا ومرجعا.

والاعتراف بمبدأ السيادة المطلقة للطبيعة، جعل الإنسان رهينة أخيه الإنسان، بقدر ما يحاول التحرر من قيوده يسقط في قيود تتغير فقط في الشكل.

والاعتراف بمبدأ السيادة للطبيعة، أبقى الإنسان يتخبط في وحشية قوانينها. تحرر من قيود العبودية جراء الإقطاعية ليسقط في قيود الاستغلال الرأسمالي والاستبداد الجماعي، تحرر من القيمة الروحية ليسقط في قيود القوانين الطبيعية، فأصبحت الحرية تعني الخضوع للغريزة الإنسانية والخضوع للأقوى.

لم تجد الديمقراطية، التي تبقى مجرد إجراء أو صيغة إجرائية رغم إيجابياتها سبيلا لنشر العدل، إذ أصبحت مصدر شرعية الأقوى.

وبقي التشريع مطلقا بيد الأقوى يزيد للقوي قوة وللضعيف ضعفا. وهذا على جميع المستويات من أصغرها إلى أكبرها ومن أسفلها إلى أعلاها. وهو المستوى العالمي الذي تهيكله هيمنة القوي على الضعيف.

والغريب أن دعاة الحرية والأخوة والمساواة الذين قاموا بثورة الحرية في فرنسا هم ذاتهم الذين أباحوا لأنفسهم استعمار واستغلال غيرهم.

استعمار الجزائر مثلا 1830 يتزامن تقريبا مع ثورة الحرية في فرنسا.

والغريب أن دعاة هذه الحرية والديمقراطية وغيرها من المبادئ المغرية هم الذين يتكتلون اليوم يتحدون لتحدي الضعيف ولإبقائه رهين التبعية.

والغريب أن جهاز الأمم المتحدة الذي يسيطر عليه الأقوياء وهم دعاة الحرية والسلم والعدالة أصبح وسيلة ومصدرا لشرعية السيطرة العالمية وأصبح في هذه المدة الأخيرة جهازا لتقنين الحرب.

فالأزمة إذا أزمة حضارة تشمل العالم كله. علاوة على أزمات الأخلاق التي تجسدها يوميا الظواهر الانحلالية التي بدأ يتصدع منها المجتمع الغربي. وأزمات مجتمع تعكسها كل التظاهرات العنيفة يعكسها غضب الشارع في الغرب وغضب القيم وغضب المستضعفين.

فرغم كل محاولات التحرر يبقى الإنسان رهينة السيادة المطلقة للإنسان الذي يبقى حكمه الأناني والناقص والماكر هوا لسائد.

وهذا التصدع من أرقى التجارب في مسار التحرر وهي العصرنة وحدة هذه الأزمة الإنسانية والحضارية في الغرب توفر الظرف إلى جانب المستوى الراقي الذي بلغه الغرب في ميدان المعارف والخبرات لتفجير صحوة إنسانية تتجه لا محالة إلى العودة إلى القيم

الروحية ومنها الإسلام، الذي يبقى الشبح الخطير الذي تتخوف منه الأنظمة الغربية (السلطوية) وتجند كل طاقاتها لمحاربته وأنا أرى بأن الأنظمة الغربية لا تتخوف من المسلمين الذين سنرى فيما بعد أنهم لا يشكلون قوة ولا خطرا. وإنما تخوفها من الإسلام الذي بدأ يتسرب داخلها عبر أناسها الذين استطاعوا بفضل مستواهم المعرفي ومستوى حدة الأزمة الحضارية التي يعانون منها إدراك عظمة الإسلام.

5-3- واقع المسلمين

أما بالنسبة للمسلمين: نلخص ما يسود وضعهم في ظاهرتين أساسيتين عموما وهما: التخلف الفكري والتخلف الاقتصادي. وهي من مخلفات سياسات إبادية دامت طويلا وقهرت وأفلست هذه الأمة أولها السياسة الاستعمارية وآخرها سياسة التبعية والاستبداد (تحت ظل الوطنيات المستقلة) ويبقى التخلف الفكري المقرون بالتخلف الاقتصادي يشكل عقبة أمام استيعاب هذه الأمة للمشروع الإسلامي.

فعلى الصعيد الاجتماعي مثلا، بقي المجتمع مقيدا بالأطر البسيطة والأولية أطر العصبيات القبلية والعشائرية التي تقمصت لون وشكل الإسلام ولم تستوعبه، فتغير لونها لتنتقل العصبيات القبلية إلى العصبيات المذهبية والآن العصبيات الحزبية والحركات.

فهلا بلغ مستوى الحب والولاء والمناصرة في الله؟ لا!

والغريب في ما وقع أن المجتمع هو الذي أطر واحتوى الإسلام وليس الإسلام هو الذي أطر ووجه المجتمع وعلى الصعيد الاقتصادي، بقي مجتمعا تابعا بكل معنى الكلمة. مجتمعا يستهلك أكثر مما ينتج، ضاع منه معنى العمل وضاعت فيه قيمة الاقتصاد. تسود فيه كل الممارسات الطفيلية المحتقرة. قادر على المزايدة والاحتكار والربا وفاشل في العمل والإنتاج. غير قادر على إنتاج معاشه وهذا هو الخطر الكبير.

ويبقى المسلم مع ذلك حاملا لشعارات لا يفهمها ومنها الحل الإسلامي وهو لا يفقه شيئا مما يقول، يهدد الغرب وهو قادر على حمل وزره وعبئه.

يحرم الربا (بالمعنى الضيق). ويظن أنه بلغ الإيمان وأنه قيم الجنة.

وعلى الصعيد السياسي والتشريعي:

ما زال يتعامل مع الإشكال ويدير ظهره للمفاهيم والقواعد الأساسية يتعصب للأشكال مصدر عصبياته وانقساماته.

ويبقى المسلم عاجزا عن الاجتهاد فيما استجد ويبقى الخلط قائما بين المفاهيم.

ولا يزال الإنسان المسلم يظن أن طريقه نحو الشرع هو الشرع ذاته، فيعتبر اجتهاده هو الحق المطلق (وهو لله وحده دون غيره)، فيعارض بذلك التعددية وحرية الرأي والتعبير وحق المشاورة وحق النقد. ويشرع لنفسه الوصاية والسلطة المطلقة ولا تزال الأمة المتخبطة في ظلمات الجهل تتمسك بالأشخاص وتدير ظهرها للأفكار والبرامج والقيم.

فكأنك بمحضر الأنظمة التيوقراطية قديما في اليونان حيث كان الإنسان الحاكم يجسد الإله. وكأنك بمحضر الدراويش يتبركون بالأولياء.

5-4- أين الحل؟

أما الطريق، فهو شاق وصعب وخاصة بالنسبة للمسلمين الذين أثقلهم التخلف الفكري والاقتصادي ويحتاج إلى تظافر للجهود وتكثيف للعمل وتوحيد للصفوف من أجل تغيير جذري في الذهنيات يتبعه عزم صادق على الاجتهاد المتواصل والعمل الدؤوب والتغيير والإصلاح المتواصل من أجل الصالح العام.

1ـ يحب أن ينطلق العمل من نظرة شمولية حيث يتفاعل العمل الاجتماعي مع العمل الاقتصادي والسياسي والتربوي.

2ـ أن يؤسس هذا العمل على تقسيم المهام حسب الاختصاص مع ترقية للاتصال والتبادل والمشاورة والمشاركة واحترام للتخصص. يتكفل الدعاة بالجانب التربوي الذي يشمل التربية الدينية والاجتماعية. ويتكفل الاقتصاديون وأصحاب الأموال بمشروع الترقية الاقتصادية وترقية الممارسة والفكر الاقتصادي. على أن يتعدى المسلم الحدود الضيقة لمفهوم (الربا)، بل يأخذ بقاعدة الاستخلاف أساسا لتخطيط المشاريع والاجتهاد في ضبط المفاهيم وتصور الأدوات.

فالاختيارات التفاضلية، كما هو متداول في علم الاقتصاد والتي تعني اختيار أحسن الظروف النوعية والزمنية والمكانية لمشروع ما، يجب أن تدمج من بين معايير الاختيار عامل الصالح العام.

فلا تقام الاختيارات على الربح المادي وحده ولكن تختار من المشاريع تلك التي تعود بفائدة على المجتمع والتي تنعكس إيجابيا على الحياة الاقتصادية أي يترتب عنها تحريك قطاعات أخرى (الاقتصاد الاندماجي) والتي توفر أكبر قسط من الأشغال.

وهكذا نتعدى عقبة المشاريع الاستهلاكية ومشاريع البيزيريا والفصول الأربعة والمشروبات الأخرى... الخ.

وكما يجب كذلك ترقية العمل والإنتاج وترقية مستوى الدخل، وذلك بتكثيف الاستثمار الجماعي وترشيد تسييرها وقد تكون الصدقات وعوائد الأملاك المحبسة والزكاة خير مصدر لهذه الاستثمارات، إذا أحسن تسييرها.

فعوض أن تعطى الزكاة أو الصدقة لصاحبها يستهلكها في وقتها ثم تزول، يستحسن أن تشترى بها أسهم باسم الفقراء والأرامل واليتامى، تضمن لهم دخلا سنويا محترما يحفظ كرامتهم وعرضهم وبذلك ترقية لدخلهم من ناحية وتساهم من ناحية أخرى تلك الأموال في الإنتاج وتوفير الأشغال. وهذا ما يدعو إليه الإسلام ويحث عليه.

وكم كنت أود، وأنا أرى الفقراء يتوسلون عند أبواب الأغنياء ويتبركون بصاحب المال الذي يتقمقم يوم توزيع الزكاة، كم كنت أود وأنا أرى الأغنياء من المسلمين ينفقون أموالهم في التباهي والمشاوي والزردات وفي البنايات الفخمة وفي شراء السيارات وأنا أرى أموالا تُهدر في اللافتات والمهرجانات،كم وددت أن تستثمر تلك الأموال في مشاريع تنموية وتقسم أسهمها على ذوي الحاجة

وتضمن للمسلم مستوى حياة عزيزة وكريمة تجعله يتحرر ويقوى ليحمل مشعل الإسلام. كم كنت أود أن يتفطن علماؤنا وخاصة في الاقتصاد، وأن لا يبقوا في (حرم الله الربا) لكن يحاولوا بخبراتهم العلمية ومعارفهم أن يجتهدوا في أحسن وأنسب الصيغ لتجسيد المفاهيم الإسلامية الواسعة والعميقة والمتكاملة والشاملة، لأنه لا يمكن ترقية المجتمع إلا بتكوين الفرد وهذا التكوين يستدعي حصانة أخلاقية ودينية وفكرية ومادية.

3ـ ويتكفل جميع علماء الإسلام بمختلف اختصاصاتهم وبتجنيد طاقاتهم للاجتهاد في أحسن الصيغ المناسبة لظروف الزمن والمكان لتجسيد مبادئ الإسلام الكفيلة بتحقيق المشروع الإسلامي المتكامل والشامل وأن يتكفلوا بترقية هذه الأمة فكريا على أساس أن العلم أمانة في الإسلام.

4ـ أما على المستوى السياسي: أن يتجاوز المسلمون عقبة جواز وعدم جواز التعددية. ويعوا أن شرع الله هو الحق المطلق وأما الطريق أو السبيل إليه، فهو عمل إنساني واجتهاد قد يخطئ وقد يصيب ولا ازدهار لذلك الاجتهاد إلا بالتعددية والمنافسة والمراقبة الفكرية. وفي هذا توفر الإجراءات والأطر الديمقراطية أحسن سبيل لذلك ولا سبيل للوصاية ولا للسلطة البشرية المطلقة وأن يعوا أن دمج الدين والدولة لا يعني دمج الأشخاص والتخصصات. لكن يعني التزام كل جهاز مستقل بوظائفه وتخصصاته، ومناهجه ومعارفه وخبراته بالشرع، فكل في مكانه حسب مستواه واختصاصه. المربي والداعية والمهندس والقانوني والمعماري والاقتصادي... إلخ.

وعلى كل واحد الالتزام بقواعد الشرع والمفاهيم الأساسية للإسلام وأن نعي أن الالتزام بالشرع هو الالتزام بقواعد الشرع الكلية وبمقاصد الشرع، التي يبقى تجسيدها في المكان والزمان من صلاحيات المجتهدين في كل اختصاص، المالكين لأدوات ذلك الاختصاص بالتنسيق مع الفقهاء ويبقى إذا باب الاجتهاد مفتوح للإنسان.

وقد أرى والله أعلم أن البرلمان يبقى إطارا مناسبا يعمر بمختلف من يقع عليهم اختيار الأمة ويستحسن أن يكونوا من أصحاب اختصاصات متنوعة في كل شؤون الحياة ويتمتعون بقدرات وكفاءات عالية في ميادينهم ويتمتعون بسمعة طيبة وبأخلاق حميدة من صلاحياتهم التشريع والاجتهاد في أمور الحياة.

وقد يكون من المستحسن أن يتحصلوا على قسط من الثقافة الشرعية.

أما الفقهاء فأراهم في مجلس آخر وهو المجلس الدستوري على أن يضاف إجراء وهو ألا يأخذ القانون طابعه النهائي إلا إذا تمت الموافقة عليه من المجلس الدستوري بعد المصادقة عليه من طرف النواب، ويكون إذا من صلاحيات الفقهاء مراعاة توافق القانون المقترح مع قواعد الشرع على أساس أنها قواعد دستورية حسب المنظور الإسلامي.

هوامش الفصل الأول.

1-راجع نظرية ابن خلدون في العمران والمعاش والاجتماع.
حيث ورد في بعض مقاله:
«اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه بمقدار يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد للعجز عما وراء ذلك. ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة لجأووا إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة...».
وغيرها كثير/ابن خلدون: كتابَ العبر وديوان المبتدأ والخبر. 6 م الطبعة الثانية، بيروت 1967.
راجع أيضا: نظريات الفارابي في العمران البشري.
ـ الفارابي: السياسة المدنية، تحقيق د. فوزي ـ م. نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964.
2-راجع بالتفصيل المراجع الواردة في الموضوع.

أهم مراجع الموضوع للفصل الأول

1 ـ الفارابي: السياسة المدنية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964.
2 ـ ابن خلدون (عبد الرحمان): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم، 6م. الطبعة الثانية، بيروت، 1967.
3ـ سيتينوموسكاني: الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986.
4ـ د. رشيد الناظوري: جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، تحليل مقارن للتاريخ الحضاري والسياسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1977.

5 ـ موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول، ترجمة اسماعيل العربي، م.و.ك، الجزائر، 1984 .
6 ـ آدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة، م.و.ك، الدار التونسية للنشر الجزائر، تونس، 1986 .
7 ـ جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى (3 أجزاء)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981 .
8 ـ حسين أحمد أمين (ترجمة) : فضل الإسلام على الحضارة الغربية، دار الشرق .
9 ـ د. توفيق عبد الجواد : تاريخ العمارة (3 أجزاء)، مكتبة الأنجلو المصرية .
10 ـ محمد محفل : تاريخ العمارة، منشورات جامعة دمشق .
11 ـ د. محمد الجوهري ود. علياء شكري : علم الاجتماع الفكري والحضري، دار المعارف، القاهرة، 1980 .

1- H. Lefebvre, *La révolution urbaine*, Gallimard, Coll. Idées, Paris, 1970.
2- Lewis Mumford, *Le declin des villes*, France empire, Paris, 1970.
3- Lewis Mumford, *Histoire des villes*.
4- Michel Ragon, *L'homme et la ville*, Berget-Levrault, Paris, 1985.
5- L. Benevolo, *Histoire des villes*, ed. Parenthèses, Roquevaine, 1983.

6- Camillo Sitte, *L'art de bâtir les villes*, ed. L'équerre, Paris, 1980.
7- Arnold Toynbee, *Les villes dans l'Histoire*, Payot, Paris, 1972.
8- Cipola Carlo Maria, Histoire économique de la population mondiale, Gallimard, Coll. Idées, Paris, 1965.
9- P. Claval, *La logique des villes*, Litec, Paris, 1981.
10- M. Tafuri, *Histoire de l'architecture et de l'urbanisme mondial.*
11- F. Choay, *L'Urbanisme, Utopies et réalités*, ed du Seuil, Coll. Points, Paris, 1979.
12- J.P. Lacaze, *Introduction à la planification urbaine*, Moniteur, Paris, 1979.
13- M. Santos, *Les villes du tiers-monde*, ed. M-TH- Génin, Paris, 1971.

الفصل الثاني

مدخل للمدينة الإسلامية

1- مدخل عام

1-1- تعريف تمهيدي

إن المدينة حسب تعريف شامل هي شكل من التجمعات البشرية بالغ الكثافة والتنظيم والتعقيد.

تعقيد هذا الشكل من التجمع يترتب عن الحجم المعتبر والكثيف لسكان المدينة وتعدد وتنوع حاجاتهم ووظائفهم وأغراض تجمعهم. (ما يعرف حديثا بالتخصص) وهذا هو الفاصل الأساسي بين تجمع الضرورة الذي تسيطر عليه البساطة (القرية) والتجمع الحضري الذي يتصف بالتعقيد (المدينة).

وقد احتل هذا الموضوع جزءا أساسيا في النظرية الخلدونية للعمران[1] حيث ورد تصنيفه للعمران إلى عمران بدوي وعمران حضري.

والأول إنما هو أصل للثاني وإذ يتسم الأول بالبساطة، فالثاني يتسم بالتعقيد والارتقاء من الأول إلى الثاني إنما ترافقه ترقية اقتصادية واجتماعية حسب ميكانيزمات معينة. وكذا في نظرية الفارابي حيث يستعمل مفهوم الاجتماع الناقص وهي الاجتماعات في القرى والمحال والسكك والبيوت. وأما الجماعات الكاملة، فهي الجماعة العظمى (جماعة أمم) والوسطى (الأمة) والصغرى (المدينة)[2]. وكذلك ورد في النظريات الحديثة.

يقتضي هذا التجمع الكثيف والبالغ التنظيم والتعقيد منظومة قيم وقواعد لضبط وتنظيم العلاقات بين أفراد الجماعة وبين الحاكم والمحكوم، جوهرها القانون ويترتب عن ذلك ضرورة قيام سلطة مهمتها رعاية أحوال الجماعة وفق هذه القيم، تتفرع عنها سلطة تشريعية تقوم بوضع القوانين، وسلطة قضائية تقوم بإصدار الأحكام والفصل بين الناس وسلطة تنفيذية تقوم بتسيير شؤون الجماعة بما تتوافق وشريعتها. فجاء القانون والسلطة شرطان أساسيان لقيام مثل هذا التجمع الكثيف والمتنوع الوظائف والحاجات.

كما استوجبت ضرورة الغذاء والمسكن والعبادة والتبادل والتعاون والدفاع التموقع في أرض تتوفر بها شروط الحياة الجماعية من مياه وتربة للزراعة وهواء طيب وحاميات ومسالك للاتصال. فاعتمدت تلك الأرض لبناء أماكن للعبادة ومساكن وأسواق ومباني دفاعية ووضع مسالك وإنشاء مزارع وكل ما تمليه ضرورة الحياة الجماعية من منشآت، فشكلت هذه الكتل المبنية والمباني والمرافق المكونات المادية للمدينة، يتم إنشاؤها بتجاوب تام مع فكر ومعتقدات ونظام تلك الجماعة وهي ما نعني بالمقومات الروحية والمعنوية والتي تشكل كذلك جزءا أساسيا من النظام الحضري.

فجاء اختلاف المدن حسب اختلاف الأمم ومعتقداتها وفكرها وثقافاتها واختلاف شرائعها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية أي مقوماتها الروحية والمعنوية، فاختلفت المدن بذلك مضمونا وشكلا إذ أن الصورة المادية للمدينة، إنما هي تجسيد وصياغة مادية لمضمونها ومقوماتها الروحية والمعنوية.

وللمدن حياة وأعمار، فهي تنشأ وتنمو وتنضج وتنحل. وهذه التغيرات في الزمن إنما تكون تحت تأثير عوامل متعددة، فكرية وإنسانية واجتماعية وسياسية وطبيعية، داخلية وخارجية يختلف تأثيرها ونتائجها حسب طبيعة وخصائص المدينة (كنظام).

وانطلاقا من هذا التعريف الشامل، أصبح من الضروري لمحاولة ضبط مفهوم المدينة في الإسلام أن نلم بكل مكونات هذا النظام (المدينة) الأساسية وهي المقومات الروحية أو المعنوية وهي لبها ومضمونها وهي التي تصيغ شكلها وتعطيها رموزها ولغتها وتغمرها بمعانيها وتضبط وظائفها ومنهج حياتها.

لذا سنتناول بصورة مختصرة المدينة، السلطة والأمة في الإسلام كمكونات متكاملة ومترابطة للنظام الحضري في الإسلام ترابط المدة والروح والشكل والمضمون.

1-2- مفهوم المدينة

إذا ما اعتمدنا على تعريف لغوي وجدنا أن كلمة مدينة تعود في الأصل إلى كلمة «دين» وهي ذات أصل سامي استعملها الأشوريون والأكاديون في معنى القانون، كما استعملت كلمة الديان في اللغة الآرمية والعبرية في معني القاضي[3]

وورد في الحديث الشريف ما رواه البخاري وابن حنبل عن جابر بن عبد الله عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: يوم يحشر العباد أو قال الناس حفاة عراة عزلا ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي

لأحد من أهل الجنة ولا أحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقصه منه . . . . » [4].

وفي هذا المعنى تأتي كلمة الديان مرادفا للملك أو الحاكم وكلها معاني تتلاءم وما سبق، فتتميز المدينة بهذه الخصائص وهي تواجد الحكم والقضاء كما يثبت التفسير الفقهي هذا المفهوم. ويذكر أبو حنيفة أن صلاة الجمعة، إنما تختص بها الأمصار دون غيرها وأن لا تجوز إقامتها في القرى، اعتبارا للمصر أنه ذلك المكان الذي يوجد فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام[5]. وقد ذكرت المدينة 17 مرة في القرآن وقد كانت كل المواضيع التي أطلق عليها هذا اللفظ يوجد بها حكام وملوك، أي تميزت بهذه الخاصية، خاصية السلطة[6].

كما شكلت الهيئة الاجتماعية ميزة من ميزات المدن فكانت المدينة هي الجماعة والمكان الملائم لتوطيد رواسي الجماعة كما ورد عن رسول الله (ص) قوله «لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع» [7].

وفي حديث آخر «إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة» وهذا ما اعتمده الفقهاء في عدم إجازة الصلوات الجامعة إلا في الأمصار.

وقد ترددت تعاريف كثيرة على لسان المؤرخين والجغرافيين والفلاسفة والفقهاء وربما نسوق هذا الموضوع في باب الفكر العمراني وازدهاره.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: قول ابن خلدون «فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير. . . » وهي موضوعة للعموم

لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون. . . . . فلابد في تمصير واختطاط المدن من الدولة والملك»[8].

وكقول الفارابي «الإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن يتم لها الضروري من أمورها ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا باجتماع جماعات منها كثيرة في مسكن واحد. والجماعات الإنسانية منها وسطى ومنها صغرى والجماعة العظمى هي جماعة أمم كثيرة تجتمع وتتعاون والوسطى هي الأمة والصغرى هي التي تحوزها المدينة وهذه الثلاثة هي الجماعات الكاملة. فالمدينة هي أول مراتب الكمالات[9].

ووفق النظرة الإسلامية للكون، فقد خلق الله الإنسان واستخلفه في الأرض وارتبط هذا التكريم بالهدف الأسمى، عبادة الله «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (سورة الذاريات 56) وقد يسخر الله الكون لهذا الإنسان واستخلفه في الأرض ليعمر ويصلح فيها ولا يفسد:

«قل هو الذي درأكم في الأرض وإليه تحشرون». (سورة الملك 24).

«والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين». (سورة الحجر 19).

فحث الإسلام على تعمير الأرض والإصلاح فيها «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون». (سورة آل عمران 104).

وهذه النظرة في الإسلام تجعل من التعمير عبادة وحافزا للتشييد والتعمير. وحسب المفهوم الإسلامي للأمة والذي بحث على رابطتها والتفاف بعضها ببعضها البعض وتعاونها على الخير.

«والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم». (سورة التوبة 70).

وكما يقول الرسول (ص) «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا».

وعلاوة على التعاليم السماوية، التي تحث على العمران والإصلاح، فإن الهيئة الاجتماعية، الجماعة المترابطة والمتعاونة في الإسلام كان حافزا مشجعا لتشيد المدن التي فيها تلتحم الجماعة لتعبد الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحكم بما أنزل الله.

فنال العمران من الفكر الإسلامي قسطا كبيرا، كما نالت المدن جزءا كبيرا من تاريخ الحضارة الإسلامية. وارتبط مفهوم المدينة كما رأينا بمفهوم الأمة ومفهوم السلطة في الإسلام.

3.1 مفهوم الأمة

مفهوم الأمة في الإسلام يختلف عن مفهوم الجماعات والمجتمعات التي غالبا ما ارتبط أعضائها بروابط الدم أو النسب أو الحلف أو الرابطة أو الأرض أو اللغة إلخ... فقط، الأمة الإسلامية ذات طابع إنساني شمولي تستمد أسسها من النظرة الإسلامية للإنسان والوجود والجماعة. فكما أنها تقر النسب وروابط الدم وفقا لفطرة

الإنسان وتحث على صلة الرحم، تسعى في هدفها إلى اجتماع التقوى وتأسيس الأمة التي تفوق روابطها كل اعتبار لتبلغ الاجتماع الفاضل اجتماع العقيدة والدين. تبدأ الجماعة بالزواج الذي يتكاثر لتتشكل منه تدريجيا جماعات (شعوب وقبائل) تجمعها الأمة.

والإنسان خلقه الله وكرمه وفضله على كثير من الخلق واستخلفه في الأرض وسخر له الكون، لا لشيء إنما لعبادة الله.

«إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم». (سورة الحجرات 13)

«قل هو الذي درأكم في الأرض وإليه تحشرون». (سورة الملك 24)

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون». (سورة المؤمنون 115).

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». (سورة الذاريات 56)

وهكذا شكلت العبادة المحور الأساسي من الوجود، فهو الهدف من وجود الإنسان ومبرر ذلك، فهو ماهية الوجود ذاته.

فشكلت العبادة بالتالي المحور المركزي للاجتماع، فكانت كذلك هدفا لاجتماع الناس وتشكيل الجماعة الفاضلة (الأمة) ورابطة بين أعضاءها وأفرادها. «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أولئك هم المفلحون». (سورة آل عمران 104)

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله». (سورة آل عمران 110)

وقد حث الإسلام الإنسان على الالتحام بالجماعة ودعا للاجتماع وذلك قصد التعاون على الخير والإصلاح وعبادة الله.

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ». (سورة المائدة 2)

وتستمد الأمة الإسلامية روحها من القرآن الكريم والسنة النبوية، فهي المجتمع الإنساني الذي يشترك في العقيدة والدين ويستقي من القرآن والسنة دينه ومنهج حياته ونظامه الاجتماعي والسياسي وقوانينه. فهو متماسك، مترابط، متآخي يوحده القرآن والسنة دينا وفكرا وعقيدة ونظاما دون اعتبار لعرقه ولا للونه ولا لأرضه ولا لجنسه. وقد وصفه رسول الله (ص) بقوله: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد ».

وكقوله صلى الله عليه وسلم: «المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»

وما من اجتماع إلا وطرأت ضرورة ضبطه وتنظيمه وما ازدهرت أمة إلا بحكم العدل فيها، فارتبط الاجتماع بالسلطة.

1-4- مفهوم السلطة

تستمد السلطة في الإسلام شرعيتها من الحكمة والإرادة الإلهية، إذ كرم الله الإنسان واستخلفه في الأرض.

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا ». (سورة الإسراء 70)

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » (سورة البقرة 30).

لكن كما ارتبط وجود الإنسان وخلقه برسالة وهي عبادة الله، فقد ارتبط هذا التكريم كذلك وهذا التشريف للإنسان أن يسوس الأرض كخليفة لله بعبادة وطاعة الله. فجاءت إرادة الله (المالك والخالق) مصدرا لهذه السلطة، أي مصدر شرعيتها، فوجب شرع الله ومنهجه كما ورد في القرآن وفصلته السنة النبوية مرجعا لنظام السياسة حكما وتسييرا وقضاءاً.

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ». (سورة المائدة 48)

« وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون ». (سورة المائدة 49)

فجاء القرآن الكريم الذي هو المصدر الأول للتشريع ومرجع الفقه والقضاء الأول، فهو شريعة الله تبارك وتعالى.

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ». (سورة الفرقان 1)

ويقول شيخ الإسلام بن تيمية: « هو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن، فلا

يستطيع أن تزيغه إلى هواء ولا يحرف به لسانه من قال به صدق ومن عمل به آجر ومن حكم به عدل ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ».[10]

أما المصدر الثاني، فهو سنة رسول الله (ص) فجاءت سنته تبين ما في القرآن وتدل عليه وتعبر عنه وتفصل معانيه، كما ورد عن ابن تيمية في تفسير قوله تعالى « وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وقيل النور هو محمد (ص)، كما قيل أن البرهان هو محمد صلوات الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى « قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا »[11].

1-5- منهجية التصنيف الزمني لتاريخ العمران الإسلامي

نعتمد في دراسة تاريخ المدن الإسلامية مبدئيا على تصنيفها إلى عصرين حسب الوضع السياسي.

العصر الأول هو الحكم المركزي، حيث كانت كل الأقاليم الإسلامية تابعة إلى حكومة مركزية، فنشأت بذلك مدن إقليمية، أمصار لعبت دور العواصم الإقليمية ويشمل هذا العصر العهد الأول عصر الخلفاء الراشدين وعاصمته المركزية المدينة المنورة ثم عصر الحكم الأموي وعاصمته دمشق وعصر الحكم العباسي وعاصمته بغداد.

أما العصر الثاني: فيبدأ بتفكك الدولة المركزية وبروز دول متعددة مستقلة حسب تعدد الأقاليم نشأت عنه مدن (عواصم) ونمت بذلك حركة عمرانية مرتبطة بهذه الظاهرة منها المدن المغربية

والأندلسية في عهود الدول المحلية المتعاقبة في الزمن والمدن المصرية والمدن الإيرانية والهندية والتركية.

أما بالنسبة لكل عصر أو جيل من المدن فقد اعتمدنا في دراسته على تصنيف متدرج وفق أربعة مراحل التأسيس / النمو والتطور / النضج ثم الانحطاط.

1- أما بالنسبة للتصنيف الأول أي عصرين: عصر الدولة المركزية، وعصر الدويلات الإقليمية فأهميته تكمن في الدور الذي كانت تلعبه العواصم المركزية في توزيع ونشر الثقافة الإسلامية عبر كل الأقاليم التي بلغها الإسلام وذلك عن طريق عمالها أو ولاتها وهيآتها وما يتبع ذلك من انتقال للفكر.

كما أنها لعبت من جهة أخرى دور مراكز استقطاب لرجال الفكر والفن والتجارة القادمين من تلك الأقاليم وهذا ما كان صالحا بالنسبة للمدينة المنورة ـ دمشق ثم بغداد.

وأهم ما نتج عن هذا هو سيادة نمط أو طراز فن موحد في كل الأقاليم الإسلامية في كل مرحلة من مراحل هذا العصر أي ساد النمط المدني في البداية ثم ساد النمط الأموي ثم النمط العباسي.

فساد طراز المسجد المدني في البداية في الكوفة والبصرة والفسطاط ثم ساد طراز المسجد الأموي العريض لبلاطاته الموازية لحائط القبلة والفاصل بين قسميها جناح مركزي في المحور اتجاه القبلة متعامدا مع حائطها أكثر ارتفاعا وعرضا من البلاطات الأخرى.

كما يتسم كذلك هذا الطراز باستعمال القبة المركزية في نقطة التقاء البلاطة الوسطى بالجناح المركزي كما تشكل كذلك المآذن المربعة إحدى سماته.

وقد ساد هذا الطراز في مصر والمغرب وفي قسم من العراق.

أما طراز المسجد العباسي: الكثير الاتساع والذي يزيد عمقه على عرضه ذا بلاطات متعامدة مع حائط القبلة مع وجود الجناح المركزي والجناح الموازي لحائط القبلة اللذان يزيد عرضهما على عرض البلاطات الأخرى فيشكلان بذلك شكل «T» (مسجد أبو دولاف) فقد ساد جزئيا في مصر (العصر الطولوني) وجزئيا في المغرب في القسم الشرقي في عهد الأغالبة الذين كانوا موالين لسلطة بغداد (مسجد القيروان، تونس، وسوسة...)

أما بالنسبة للعصر الثاني، فيبدأ بتفكك الدولة المركزية وسقوط بغداد، حيث ظهرت في المغرب ابتداء من القرن الثامن دول الإباضية والصفرية تلتها دول الأدارسة والأغالبة ثم أجيال أخرى من الدول المستقلة.

كما انفصل ابن طولون ابتداء من القرن التاسع في مصر عن السلطة العباسية، تلته بعد ذلك أجيال من الدول المستقلة في مصر: الفاطميون والأيوبيون ثم المماليك.

كما ظهرت منذ القرن العاشر دول مستقلة في إيران، منها دولة خراسان ودولة الغزناويين.. إلخ ثم تلتها أجيال أخرى من الدول، الأتراك ثم المغول ثم الصفويون... إلخ.

وأهم ما نتج عن هذا بروز التأثيرات المحلية (من تقاليد قديمة مع أوضاع مناخية وثقافة محلية... إلخ) التي امتزجت بالعمارة الإسلامية، فنمت بذلك أنماط عمارة إسلامية ذات طابع إقليمي شكلت في حد ذاتها مدارس، نتج عنها ظهور المدرسة المغربية

الأندلسية، المدرسة المصرية والمدرسة الإيرانية (مساجد إيوان) والمدارس الهندية والعثمانية.

2- أما بالنسبة للتصنيف الثاني أي تصنيف العصرين إلى أعمار. فيمكننا من ملاحظة أهم مراحل نمو المدينة والفن: تأسيس / نمو / نضج وانحطاط.

وقد تم في خلاصة الأمر اعتمادنا في هذه التصانيف الزمنية على التاريخ السياسي والاجتماعي الإسلامي لمدى ارتباط العمارة والعمران بالوضع السياسي والاجتماعي.

2- مرحلة التأسيس

نتعرض في هذا الفصل إلى مرحلة التأسيس، ونعني بها العهد الأول للإسلام الذي قام فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع الأسس التنظيمية الأولى للأمة والدولة والمدينة الإسلامية عقيدة ونظام حياة، دينا ودنيا، نظام شامل متماسك مترابط ومتداخل الأعضاء.

تبدأ هذه المرحلة بهجرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى يثرب حيث قام بتأسيس هذا الكيان الحضاري الإسلامي وتمتد خلال خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أبو بكر، عمر، عثمان وعلي الذين اتبعوا منهج رسول الله (ص) واجتهدوا حسب ما وفقهم الله.

وتنتهي هذه المرحلة بآخر الخلفاء الراشدين علي رضي الله عنه وانتقال الحكم إلى بني أمية، إذ تم انتقال العاصمة من المدينة المنورة

إلي دمشق. تبعت هذا الانتقال للحكم تغيرات جذرية في النظام الإسلامي فتحت عهدا جديدا بما فيه وما عليه.

ولهذه المرحلة التأسيسية في دراسة التاريخ الإسلامي أهمية بالغة، لكونها المصدر الرئيسي والمرجع الأصلي للنظام الإسلامي، حاول منه المسلمون أن يستمدوا مناهج نظامهم فيما يتعلق بكل شؤونهم. ولا يمكن فهم الإسلام بكل مقوماته إلا بالرجوع لهذه المرحلة، عهد الخلافة الرشيدة.

2-1- تأسيس المدينة الإسلامية

تعد المدينة المنورة المرجع الأصلي لنظام المدينة، كما تعد عمارتها مرجعا أولا للعمارة الإسلامية لكونها أول مدينة وضع أسس نظامها رسول الله صلى الله عليه وسلم تزامنت مع تأسيس نظام الدولة الإسلامية ونظام الأمة الإسلامية.

يثرب قبل الإسلام

يثرب كما يصفها ياقوت الحموي «حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار عليها العبيد»[12] وقد كانت قبل الإسلام مقسمة إلى محلات سكنية منفصلة تسكنها قبائل الأوس والخزرج العربية وقبائل اليهود قريظة والنظير ولهم فيها ضياع ومزارع وكانت بها آطاما أي حصون بلغ عددها (59) تسعة وخمسين آطما يتحصنون بها وفي أطراف المحلات أسواق وبها سقائف تجتمع فيها القبائل.[13] وبالمفهوم الحديث فهي

تجمع نمطا ريفيا يعتمد في إنتاجه على الزراعة ويمتد في أرض واسعة ضعيفة الكثافة، تتخللها محلات سكنية منفصلة وقد هاجر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لما نزل بها «اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا واسعا»[14].

تأسيس المدينة بيثرب

لقد كان لهجرة الرسول (ص) أثر بالغ في إعادة هيكلة المدينة وفي تغيير معالمها. فقد اختارها أول دار للهجرة حيث بدأ تأسيس نظام الأمة ونظام الدولة في الإسلام، فأسس مدينة لتجسد ماديا هذه المقومات الروحية والمعنوية وتتجاوب روحا وشكلا معها، فكانت مركز الخلافة وأول عاصمة للدولة الإسلامية.

جمع فيها بين المهاجرين والأنصار في مجتمع عضوي واحد انصهرت فيه العصبية القبلية، كما دعى فيه إلى صلة الرحم واستخلف تلك العصبية بوحدة العقيدة. كما جسد هذا في المدينة حيث جمع شتاتها ووحد كيانها في هيكل عضوي متماسك، أقام فيها المنشآت الضرورية ووطد دعائمها السياسية بتنظيم سلطتها. لتصبح النموذج الأول للمدينة الإسلامية.

خطة التنظيم المادي للمدينة

يمكن أن نتصور بصورة منطقية أن المدينة المنورة مدينة جديدة أسست وفق خطة تنظيمية مسبقة خلافا للمدن ذات النشأة التلقائية. فقط استغل الرسول (ص) أرضا في أغلبها فضاءاً غير

مبنيّ (أرض مشاع)، كما سيأتي تفصيل ذلك. أسس المدينة بعدً ذلك وفق منهجية مسطرة وربما شكلت نواة حضرية امتدت على أطرافها المحلات السكنية والمزارع الموجودة من قبل. وهذا ما تأكده شهادة ياقوت «وكذلك حوالي المدينة ضياع كثيرة أكثرها خراب»[15].

نزل الرسول (ص) في منطقة أخواله بني النجار، وقد جعل له أهل المدينة «كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء»[16] مما يذكر ياقوت أن رسول الله (ص) كان يقطع أصحابه هذه القطائع، فما كان في عفا من الأرض، فأنه أقطعهم إياه وما كان من الخطط المسكونة العامرة، فإن الأنصار وهبوه له، فكان يقطع من ذلك ما شاء وكان أول من وهب له خططه ومنازله حارثة ابن النعمان، فوهب له ذلك وأقطعه.»[17]

من هنا نستنتج أنه علاوة على توطيد الأخوة في الإسلام بين المهاجرين والأنصار أن الرسول (ص) وفر الشرط الأول للإنشاء المعماري للمدينة وتنظيمها وهو الأرض (العقار).

وقام بأول عمل إنشائي وهو إنشاء المسجد. علاوة على قيمه الوظيفية، فقد كان مركز استقطاب وتوحيد عضوية المدينة. فكان طوبوغرافيا شاهدا لتقسيم الخطط... أقطع الناس الدور والرباع، فخط لبني زهرة في ناحية مؤخر المسجد، فكان لعبد الرحمان بن عوف الحصن المعروف به وجعل لعبد الله وعتبة ابن مسعود الهدليين الخطة المشهورة بهما عند المسجد وأقطع الزبير بن العوام بقيعا واسعا وجعل لطلحة ابن عبد الله موضع دوره ولأبي بكر رضي الله عنه موضع داره عند المسجد... »[18].

وبعد إنشاء المسجد، قام الرسول (ص) بتقسيم الأراضي إلى خطط وهي الوحدة العمرانية الأساسية وفق نمط التوزيع القبلي، فكان لكل قبيلة خطة متماسكة كلها ومترابطة حوالي المسجد المركز الموحد وقلب المدينة.

وقد تركت عملية التقسيم الداخلي للخطة وعملية الإنشاء والتعمير فيها لكل قبيلة. وهكذا تحددت حدود المسؤولية الجماعية والخاصة وإشراك السكان في عملية الإنشاء وتعمير المدينة وهذا ما يعرف حديثا بمفهوم التعمير الجماعي.

وغالبا ما احتوت الخطط على مساجد صغيرة للصلوات الخمسة ومدفن وبهذه أخذت الخطط شكلا مصغرا للمدينة، فتشكلت المدينة الكاملة التي يهيكلها مركزها ووظائفه ذات الطابع الجماعي والمشترك، بمجموعة من مدن صغيرة وحدتها وجمعتها في كيان عضوي متماسك.

ثم أنشأ الرسول (ص) سوقا بالمدينة كمركز ثاني للمدينة ذا طبيعة اقتصادية وكانت في شكل مساحة فضاء غير مبينة ويحتمل أن يكون خارج المدينة في الجانب الغربي. كما أن الرسول(ص) حدد مصلى لصلاة العيد وهو كذلك مساحة فضاء غير مبنية وتقع حسب شهادة ياقوت في غرب المدينة وداخلها. كما خط الرسول (ص) بالمدينة شوارع وسكك للربط بين التكوينات المعمارية والاتصال ببعضها البعض لتنظيم التنقل في المدينة وامتدت الشوارع الرئيسية من المسجد كمركز رئيسي للمدينة إلى أطرافها، تفرعت عنها شوارع ثانوية كهمزة وصل بين هذه والأزقة التي تتوغل في

الخطط. شكلت كل هذه الشوارع والسكك والأزقة شبكة كانت بمثابة شريان المدينة اختلفت مقاييسها حسب اختلاف أدوارها وكثافة الحركة التي تستقطبها. ويشير محمد عبد الستار عثمان نقلا من السهمودي إلى طريق يمتد من المسجد ويتجه غربا حتى يصل إلى جبل سلع وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل إلى قباء جنوبا ومن قباء وجد طريق يتجه شمالا إلى البقيع[19].

ويشير محمد عبد الستار عثمان استنادا إلى السمهودي أن عرض الشارع الأعظم الذي يمتد من باب السلام بمسجد الرسول (ص) إلى مصلى العيد يبلغ عشرة أذرع (خمسة أمتار تقريبا) بينما تتراوح الطرق الجانبية بين خمسة أذرع وست وسبع[20].

وللدفاع عن المدينة أمر الرسول (ص) بحفر خندق في الجهة الشمالية الضعيفة بالنسبة للجهة الأخرى التي تحميها الحرات وقد حفر أربعون ذراعا عمقا على إثنا عشرة ألف ذراع طولا. كما حصنت جدران المنازل القريبة من الخندق[21].

كما سن الرسول (ص) إنشاء أماكن للعلاج وقد نصب خيمة للتداوي في فناء المسجد بعد رجوعه من غزوة الخندق[22].

وخصص بالمدينة دورا للضيافة واستقبال الوفود سميت بدار الأضياف ودار الضيفان كان أهمها دار عبد الرحمان بن عوف[23].

كما أقر مقرا لحبس المخالفين ويؤكد هذا حبس الرسول (ص) بني قريظة في دار من تلك الدور. ومن الجانب العقاري ونظام

الأراضي والأملاك، فقد أقر الرسول (ص) إحياء الأرض الموات ويورد الأستاذ عبد الستار استنادا إلى حديث رواه طاووس قال: قال رسول الله (ص) «عاري الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعدي فمن أحيا أرضا ميتة، فهي له وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين.»[24]

وفيما يرويه، ياقوت: «بقربها مزارع فيها نخيل وضياع لأهل المدينة»[25].

كما أقر الرسول (ص) نظام الوقف ونورد بئر رومة كمثال حي لذلك حيث دعى الرسول (ص) من يشتريها ويحبسها لله، فاشتراها عثمان ووهبها للمسلمين[26].

التكوينات المعمارية

ونقصد بها المباني الرئيسية والفراغات الأساسية التي تشكل الهيكل المادي أو الفيزيائي العام للمدينة.

المسجد: هو أول مبنى في المدينة، إذ بالنسبة لموقعه المركزي يتم تقسيم أراضي المدينة وتنظيمها. ويحتل المركزية كموقع أساسي، نظرا للدور الذي يلعبه كنقطة استقطاب وتوحيد لأطراف الجهاز (المدينة). وفي هذا الصدد تبدو أهمية صلاة الجمعة كممارسة دينية ودورها في جمع الشمل وتوحيد الجماعة، فكان ينفرد بها مسجد واحد وهو المسجد الجامع، فأصبحت المساجد الجامعة دلالة على المدينة[27]. كما يعود ذلك أيضا إلى الوظائف التي يقوم بها المسجد وهي متعددة دينية، إدارية، ثقافية، وتربوية...

الخطط. شكلت كل هذه الشوارع والسكك والأزقة شبكة كانت بمثابة شريان المدينة اختلفت مقاييسها حسب اختلاف أدوارها وكثافة الحركة التي تستقطبها. ويشير محمد عبد الستار عثمان نقلا من السهمودي إلى طريق يمتد من المسجد ويتجه غربا حتى يصل إلى جبل سلع وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل إلى قباء جنوبا ومن قباء وجد طريق يتجه شمالا إلى البقيع[19].

ويشير محمد عبد الستار عثمان استنادا إلى السمهودي أن عرض الشارع الأعظم الذي يمتد من باب السلام بمسجد الرسول (ص) إلى مصلى العيد يبلغ عشرة أذرع (خمسة أمتار تقريبا) بينما تتراوح الطرق الجانبية بين خمسة أذرع وست وسبع[20].

وللدفاع عن المدينة أمر الرسول (ص) بحفر خندق في الجهة الشمالية الضعيفة بالنسبة للجهة الأخرى التي تحميها الحرات وقد حفر أربعون ذراعا عمقا على إثنا عشرة ألف ذراع طولا. كما حصنت جدران المنازل القريبة من الخندق[21].

كما سن الرسول (ص) إنشاء أماكن للعلاج وقد نصب خيمة للتداوي في فناء المسجد بعد رجوعه من غزوة الخندق[22].

وخصص بالمدينة دورا للضيافة واستقبال الوفود سميت بدار الأضياف ودار الضيفان كان أهمها دار عبد الرحمان بن عوف[23].

كما أقر مقرا لحبس المخالفين ويؤكد هذا حبس الرسول (ص) بني قريظة في دار من تلك الدور. ومن الجانب العقاري ونظام

الأراضي والأملاك، فقد أقر الرسول (ص) إحياء الأرض الموات ويورد الأستاذ عبد الستار استنادا إلى حديث رواه طاووس قال: قال رسول الله (ص) «عاري الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعدي فمن أحيا أرضا ميتة، فهي له وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين.»[24]

وفيما يرويه، ياقوت: «بقربها مزارع فيها نخيل وضياع لأهل المدينة»[25].

كما أقر الرسول (ص) نظام الوقف ونورد بئر رومة كمثال حي لذلك حيث دعى الرسول (ص) من يشتريها ويحبسها لله، فاشتراها عثمان ووهبها للمسلمين[26].

التكوينات المعمارية

ونقصد بها المباني الرئيسية والفراغات الأساسية التي تشكل الهيكل المادي أو الفيزيائي العام للمدينة.

المسجد: هو أول مبنى في المدينة، إذ بالنسبة لموقعه المركزي يتم تقسيم أراضي المدينة وتنظيمها. ويحتل المركزية كموقع أساسي، نظرا للدور الذي يلعبه كنقطة استقطاب وتوحيد لأطراف الجهاز (المدينة). وفي هذا الصدد تبدو أهمية صلاة الجمعة كممارسة دينية ودورها في جمع الشمل وتوحيد الجماعة، فكان ينفرد بها مسجد واحد وهو المسجد الجامع، فأصبحت المساجد الجامعة دلالة على المدينة[27]. كما يعود ذلك أيضا إلى الوظائف التي يقوم بها المسجد وهي متعددة دينية، إدارية، ثقافية، وتربوية...

أما عن إنشائه وشكله، فكان مسجد الرسول (ص) في شكل مربع طول ضلعه 100 ذراع (50م) مركزه فناء واسع غير مبني وغير مغطى. مسقوف جانبه الشمالي ناحية القبلة الأولى ثم غطي بسقف جانبه الجنوبي في اتجاه القبلة الكعبة.

بُنيت في جانبه الشرقي بيوت أزواج النبي (ص). البيت هو عبارة عن مربع طول ضلعه 8 إلى 9 أذرع وفي كل بيت حجرة ضلعها (6/7 أذرع) صنعت حيطانها من أكسية من الشعر، مربوطة بخشب عرعر[28]. وقد وسع المسجد وأضيف إلى بنائه وأعيد على مر الأزمنة. فهو ملفوف (مستور) وغير مغلق. وفي هذا تبدو جدرانه الخارجية حدا فقط للحرم، تحمى حرمته وهو مبنى ذو مركز مكشوف ومفتوح نحو السماء للتهوئة والنور.

الخطة: طبوغرافيا، أي وفق نظام تقسيم الأراضي هي الوحدة العمرانية وبمجموعة هذه الوحدات تتشكل المدينة.

وفق تنظيم المدينة هي خلية من المدينة أو مدينة صغيرة تجتمع فيها المرافق الضرورية للحياة وتسكنها وفق التنظيم الاجتماعي مجموعة عائلية واحدة.

وحسب نظام الملكية هي ملكية خاصة بالوحدة الاجتماعية (ذات طابع جماعي)، أي القبيلة. فلها كلا الوجهين الخاص والجماعي للملكية ويعود إنشاؤها وتعميرها وتنظيمها للمجموعة الساكنة (المستعملة)، فإنشاؤها يكون كالتالي:

تتكون من مجموع الدور التي تلتف حول مركز الخطة وهو غالبا ما يكون فضاءاً غير مبني في معظمه، يستغل جزء منه

لبعض المنشآت الخاصة بالخطة ومنها مصلى ومدفن ومحطة للإبل. تتصل الخطة بمركز المدينة بشبكة من الخطوط التدريجية الدرب أو الزقاق النافذ إلى الطرق الفرعية المتفرعة عن الطرق الرئيسية، فتكون بذلك مدينة مصغرة ويربطها مركز المدينة الشاملة بالمدن والوحدات العمرانية الأخرى في هيكل شامل وأكبر متماسك ومترابط مكون من هذه الوحدات المتلاصقة والمترابطة.

وتتكون الخطط بدورها من وحدات جوار وهي الدور التي تلتف حول درب مشترك وتتكون هذه الوحدات بدورها من دور تلتف كل واحدة منها حول مركزها وهو فناء الدار، فتكون بذلك لدينا أشكال مركزية متدرجة من الخلية الأولى (الدار) إلى وحدة الجوار، إلى الخطة ثم إلى المدينة (الهيكل الشامل العام).

وكل هذه المراكز إنما تكون فضاءاً غير مغطى أو مساحات حرة تحتل موقع المركز أو قلب الفراغ.

أما دور الخطة في المدينة، فهو بعد المركز، عنصر ثاني مهم وهو المحيط يستمد المركز منه قوته ووظيفته الأساسية في المدينة هي السكن. أما عن الإنشاء المعماري المفصل، فيلاحظ فراغ كبير في موضوع الدار ونمطها وشكلها وطريقة إنشاءها فيما يتعلق بالعصر الإسلامي الأول ويبقى الباب مفتوح للبحث.

كما أن باب التنظيم الداخلي والإنشاء المعماري لهذه الخطط مازال يشكل ميدانا مفتوحا للبحث وما لدينا سوى صورة عامة للتنظيم الهيكلي وفي الحديث الذي يرويه ابن عباس عن الرسول (ص): «لا ضرر ولا ضرار للرجل أن يضع خشبة في حائط جاره وإذا

اختلفتم في الطريق فاجعلوها أذرعا »[29] وأيضا فيما معناه أن جارك هي الأربعين دارا التي بشمالك ويمينك ومن ورائك .

دلالة على بعض ملامح تنظيم الرسول (ص) للخطط لكن تحتاج إلى بحث أطول .

المسالك والطرق

هي العنصر الثالث الرئيسي في بناء هيكل المدينة . فهو بمثابة شريان المدينة يوصل بين قلبها وبقية أطراف جسدها فينظم بذلك حركتها .

مجموعة المسالك حسب طبيعتها العقارية ووظيفتها ودورها ومقاييسها .

تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

الشوارع الرئيسية

وهي المسالك الرئيسية للمدينة التي تربطها بالمناطق المجاورة وأهم عقدها تربط بين مركز المدينة وأبوابها كما أن امتدادها خارج المدينة يربطها بالمناطق المجاورة وتقوم كذلك بتنظيم وهيكلة امتداد المدينة . أما عن طبيعة عقارها، فهي ملكية جماعية يعود تنظيم استعمالها وصيانتها ومراقبة أحوالها إلى الجماعة . أما عن نشاطها، فهي تقوم بأكثف نشاط إذ بها تتم الحركة بين مركز المدينة وخارجها وتربط بين أهم الفراغات الرئيسة في المدينة ذات الحركة والنشاط الكثيف، المركز، السوق، ولا معبر أكثر من حركة المصلين المتوجهين لصلاة الجمعة في المسجد الجامع الذي تجتمع فيه كل أمة .

وقد كان الشارع الأعظم الممتد من باب السلام بمسجد الرسول (ص) إلى مصلى العيد يبلغ 10 اذرع وقد كان بالمدينة المنورة شارع يمتد من المسجد غربا إلى جبل سلع والثاني يخترق منازل بني عدي ويصل قبا جنوبا . ومن قبا وجد طريق يتجه شمالا إلى البقيع وتتراوح الطرق الجانبية بين (5. 6. 7 أذرع) . أما النوع الثاني، فهي الطرق الفرعية وهي متوسطة الحجم والنشاط، طبيعتها العقارية ملكية جماعية . أما دورها فهو الانتقال من الشوارع الرئيسية إلى الدروب والأزقة غير النافذة في معظمها والتي تؤدي إلى الخطط . أما النوع الثالث فهي الدروب أو الأزقة التي في معظمها غير نافذة وهي التي تتوغل في الخطط دورها يقتصر على استعمال محدود يمكن إيصال الخطة بالشارع العام ثم بالمدينة، فهي غالبا ما تكون ذات أصغر المقاييس سبعة أذرع حسب حديث الرسول (ص) وحسب ما أمر به عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في الكوفة والبصرة حيث أمر أن تكون الشوارع الرئيسة ستون ذراعاً وما سواها عشرون ذراعاً والأزقة سبعة أذرع وملكيتها خاصة بسكان الخطة لهم حق الارتفاق بها وتنظيمها وصيانتها وإذا ما طرأت ضرورة تسقيف جزء منها فقد حدد الفقه أن لا ينزل السقف على قامة راكب فوق جمل وقيل شاهرا سيفه .

الحصون والأسوار

هذا العنصر في إنشاء المدينة له ميزة خاصة حيث تعد الحصون والأسوار والخنادق كمباني دفاعية لها طابع دفاعي وعسكري . وقد

سنها الرسول (ص)، إذ قام هو وجمع المسلمين بحفر الخندق في الجهة الشمالية التي كانت معرضة للخطر خلافا للجهات الأخرى التي كانت تحيطها الحرات وقد حفرت أربعون ذراعا في العمق على طول حوالي اثنا عشرة ألف ذراع. كما أمر بتحصين المنازل التي بقرب الخندق وهكذا ظهرت ملامح العمارة الدفاعية والحربية حسب هذا الشكل كضرورة عمرانية أساسية وهي الأمن والاستقرار وحماية المدينة. لكنها من جهة أخرى تعد رسما حدوديا للفراغ القابل للتعمير ولها سمة خاصة في المدينة الإسلامية والتي تتفاعل جيدا مع مفهوم الحرمة والحرم. وهكذا شكلت الأسوار رسما حدوديا للفراغ الحرمي وكذلك حماية معنوية. ومن هذا المنطلق برز كستار للمدينة يلتف حولها، فقيل عن المدينة الإسلامية أنها ملفوفة أو مستورة وغير مغلقة. إضافة إلى هذا الستار أضيفت الجدران الخارجية للديار الخاصة كستار لها فشكلت هذه الأسوار للمدينة والجدران للديار مجموعة ستائر تميز الشكل المادي الذي تتميز به المدينة الإسلامية الملفوفة في مجموعة ستائر وتنفتح إلى السماء وتكون بذلك واجهتها رأسية ولا أليق لرؤيتها خير من الصور الجوية. أما الأبواب فهي كذلك عنصر هام، فهي منافذ المدينة ونوافذها كما أنها تشكل علاوة على وظيفتها الدفاعية نقطة وصل بين خارج وداخل المدينة، فنجدها في أغلب الأحيان في شكل قبو أو دهليز أو ممر واسع يمكن من مراقبة الدخول. ولمعالجة الفراغ الواصل بين الداخل والخارج صيغة خاصة إذ سيطرت عليها فكرة الحرمة كما هو الحال بالنسبة للدار فجاء فراغا وسيطا يصل الداخل

بالخارج ويحمي بذلك حرمة المدينة ربما شكلت المداخل المنحنية الزاوية في المدن العباسية نموذجا ناضجا لهذه الفكرة.

الرحبات والميادين

أما الميادين، فنقصد بها تلك الفراغات الغير مبنية والتي كثيراً ما أخذت اسم الرحبة في المدينة الإسلامية وتعددت وظائفها وتنوعت حسب الفصول وحسب أوقات اليوم وحسب المناسبات.

تشكل هذه الميادين جزءا هاما من المدينة الإسلامية فهي على الصعيد المعماري نغمة فنية تنسجم وفقها الفراغات المبنية مع الفراغات الحرة فينتج عنها توازن حيوي للمدينة فيه راحة للرؤية ونفس للمدينة. أما على المستوى الوظيفي، فهي فضاءات جماعية نظرا لقدرتها المتعددة الوظائف والصالحة للممارسات الاجتماعية في المدينة. فهي ذات طابع جماعي واجتماعي، إذ أنها تشكل أهم مجالات اللقاء والتبادل الإعلامي وتوفر أيضا المجال الملائم لكل الممارسات الجماعية في المدينة طبعا وتختلف عن مفهوم الساحات العمومية في المدينة ا لإغريقية. أقيمت الأسواق في هذه الميادين وأقيمت فيها الشعائر الدينية، كما هو الحال بالنسبة لمصلى العيد. كما استعملت كذلك لاستعراضات الجند وللقاءات الثقافية... إلخ. وربما تعددت الوظائف في نفس الميدان، حسب أوقات اليوم، وحسب الفصول وحسب المناسبات، وقد سن الرسول (ص) السوق في المدينة وجعلها ساحة فضاء لا بناء فيها. كما سن مصلى العيد وهو ساحة فضاء لا بناء فيها وقد عولجت أغلبية الفراغات

ذات الطابع الجماعي والاجتماعي بهذه الطريقة، فكانت هي المركز حسب تسلسلها التدريجي.

ونستشهد في سن الرسول (ص) ضرورة السوق ميدانا حرا بحديثه (ص): «هذا سوقكم، فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج»[30].

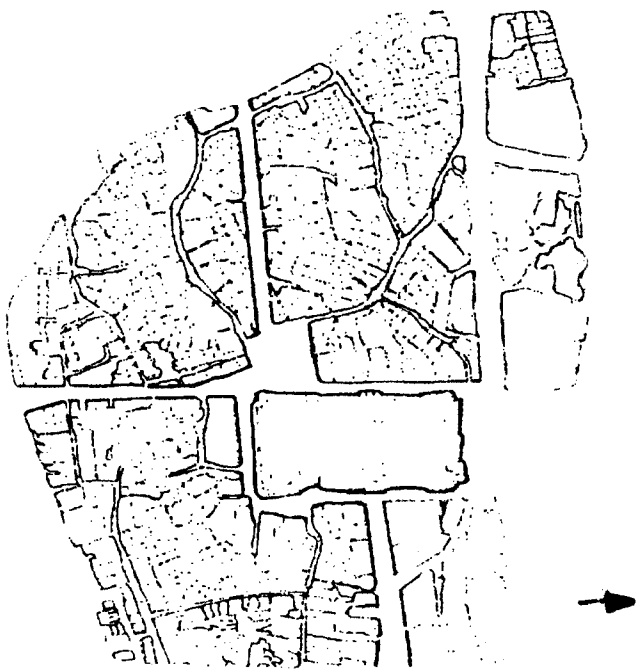

عن محمد عبد الستار عثمان

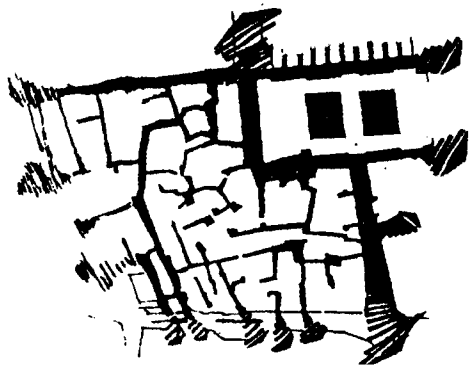

هيكل المدينة المنورة

ذات الطابع الجماعي والاجتماعي بهذه الطريقة، فكانت هي المركز حسب تسلسلها التدريجي.

ونستشهد في سن الرسول (ص) ضرورة السوق ميدانا حرا بحديثه (ص): «هذا سوقكم، فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج»[30].

من محمد عبد الستار عثمان

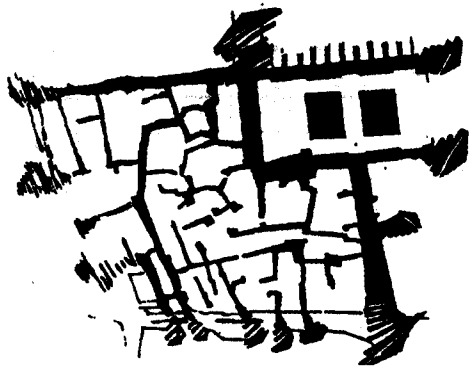

هيكل المدينة المنورة

الحرم الشريف بالمدينة المنورة

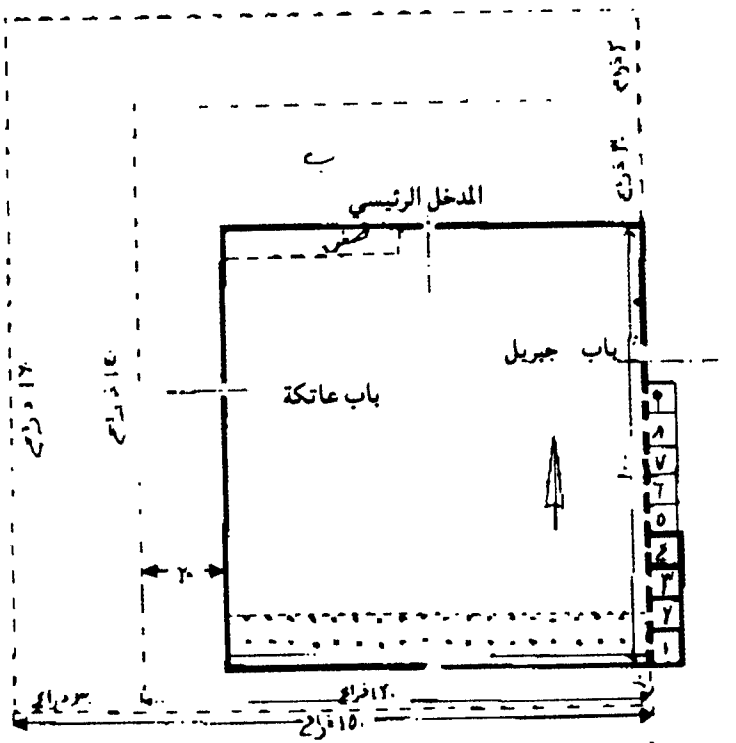

مقياس الرسم 1 : 600

الحرم الشريف بالمدينة المنورة

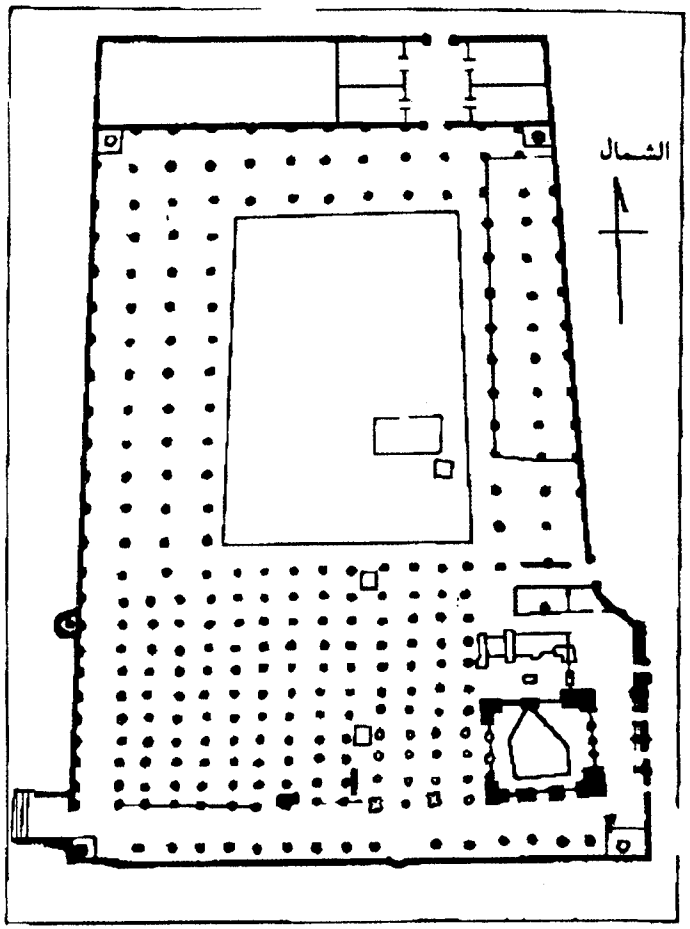

تخطيط الحرم بالمدينة بعد الإضافات التي أدخلت عليه

المنشآت الاجتماعية والمرافق العامة

المرافق الضرورية

أما بالنسبة للحياة في المدينة، فقد وجدت منذ العصر الأول جميع المرافق الضرورية للحياة الجماعية وكذلك المنشآت الاجتماعية.

وقد اعتنى الرسول (ص) بالمياه الصالحة للشرب وفي هذا الصدد نورد نداءه للمسلمين كي يشتري أحدهم بئرا بها ماء صالح، فاشتراها عثمان رضي الله عنه وجعلها وقفا للمسلمين. وقد روى عن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله (ص) قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه منها دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي وجعلتها للمسلمين» [31].

وهذا دليل على أن الآبار كانت المصدر الأساسي للمياه في المدينة المنورة، كما وجدت كذلك بيوت لقضاء الحاجات سميت بالمناصع، إضافة إلى بيوت الخلاء الملحقة بالمنازل[32]. ويبقى هذا الجانب غامضا كذلك في بعض جوانبه ولا ندري كيف كانت تسلك المياه إلى الديار وكيف تصرف المياه القذرة ... إلخ ويبقى باب البحث مفتوحا.

المنشآت الاقتصادية

كما كانت الحياة الاقتصادية من الضروريات الاجتماعية، فقد سن الرسول (ص) السوق وهو المركز الرئيسي للتبادل التجاري فيه تعرض السلع ومنه تشترى وقد وجدت سوق واحدة في المدينة

خلافا للأسواق المتعددة التي تواجدت في المحلات القديمة. وقد قال صلى الله عليه وسلم حين تحديده موضع السوق: «هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج» وكان ساحة فضاءاً لا بناء فيها تعرض فيه السلع والمكان لمن سبق [33].

المنشآت الثقافية التربوية

كما كان للمدرسة والتربية أثر هام ودور فعال في المجتمع الإسلامي وقد كان المسجد علاوة على مهامه الدينية مركز تعليم وتربية وإشعاع علمي وثقافي، فخصصت أطر لحفظ القرآن ونظمت حلقات علمية وثقافية في المسجد على رأسها عالم يلتف حوله الطلبة وقد تولى الرسول (ص) هذه المهمة فكان أول معلم في الإسلام وفي هذا الصدد تندرج كل التعاليم النبوية التي تحرض على العلم.

المنشآت القضائية

كما كان القضاء يحتل مكانة هامة في حياة المدينة الإسلامية كما للعدل من أثر على استقرار وازدهار المجتمع.

وقد كان كذلك علاوة على المهام التي سبق ذكرها دار قضاء وقد كان يجلس القاضي بركن من المسجد للفصل بين الناس، كما أقر رسول الله (ص) الحبس وقد سجن في بعض الدور رجالا من بني قريظة.

المنشآت السياسية والإدارية

وقد لعب المسجد أيضا هذا الدور ونشط هذه الوظيفة، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول رئيس للدولة الإسلامية مصرف شؤون الدولة والإمارة والمالية في المسجد علاوة على كون بيوت أزواجه مجاورة للمسجد.

المنشآت الاجتماعية والصحية

علاوة على المسجد الذي يقوم بوظائف متعددة دينية، اجتماعية، إدارية، وسياسية، فيعد بذلك المبنى الجماعي والاجتماعي المتعدد الوظائف. فقد خصص الرسول (ص) دورا للضيافة سميت بدار الضيفان كان من أهمها دار عبد الرحمان بن عوف وسميت بدار الضيفان.

وبالنسبة للمنشآت الصحية، فقد نصب الرسول خيمة للتداوي في فناء المسجد ذلك بعد عودته من غزوة الخندق وهكذا يتضح لنا بشكل عام أن الرسول (ص) سن جميع مرافق الحياة الضرورية للحياة الجماعية والاجتماعية بالمدينة، فاكتملت المدينة بتلك المنشآت من دينية وسياسية وإدارية واجتماعية واقتصادية وتربوية وثقافية وصحية وقضائية. ونلاحظ في خلاصة القول أن المسجد كان المبنى الرئيسي للمدينة وقد تعددت وظائفه، فاحتوى على أغلبية هذه المنشآت بينما خصص لكل واحدة منها مبنى كما سنراه في المدن الإسلامية التالية.

المؤسسات الحضرية

كما أن النظام والعدل والأمن من الشروط الأساسية للحياة الاجتماعية في المدينة ولاستقرار أوضاعها، فقد سن الرسول (ص) نظام المؤسسات الحضرية التي تخول لها سلطات المدينة ومهامها هي إدارة المدينة ومرافقها الجماعية وصيانتها وحل مشاكلها وعلى حفظ النظام بالقضاء والفصل بين الناس بالعدل وحفظ الأمن ورعاية أخلاق المدينة ونشاطها.

فوجد القضاء وقد كان يجلس القاضي بالمسجد للفصل بين الناس وكان أول من ولاها الرسول (ص) ثم قلدها بعده أكفاء وللقاضي أعوان يساعدونه في مهمته. كما وجدت كذلك ولاية الحسبة وأهم مهامها مراقبة الأسواق ورعاية الأحوال الاقتصادية والمعاملة من النوعية إلى الموازين وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورعاية كل المرافق العامة للمدينة وتولي صيانتها. وقد قام الرسول (ص) بهذه المهمة ثم قلدها أصحابه وقد قلدها سعد ابن أبي وقاص على سوق مكة وقلدها كذلك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

كما وجدت كذلك ولاية الشرطة ومهامها رعاية الأمن في المدينة. وكان رسول (ص) بصفته رئيس الدول يتولى بنفسه شؤون الإدارة السياسية ثم ظهرت فيما بعد ولاية الإمارة وذلك بعد الفتوحات وكان العامل يتولى باسم الخليفة إدارة شؤون مصر ما. كما سن الرسول (ص) مؤسسة حضرية ذات طابع عقاري ومالي وهي الوقف وهي مؤسسة إدارة كل الممتلكات الخاصة التي يحبسها

المسلمون ويجعلونها وقفا في سبيل الله لا تباع ولا تشترى ومنها ما يستغل مباشرة ومنها ما تستغل موارده لخدمة المصلحة العامة والمرافق العامة وقد لعبت هذه المؤسسة دورا هاما في النشاط الحضري وفي خدمة الجماعة وقد كانت موردا أساسيا لصيانة المرافق العامة وقد شكلت القسم الأساسي من هذه المرافق الأساسية مثل المزارع والآبار والمدارس والدور إلخ... وهذا يدخل في باب التعاليم النبوية التي تحرض المسلمين على المنفعة العامة وعلى الصدقة الجارية وقد سنها الرسول (ص) في ما رواه عثمان رضي الله عنه في حادثه اشتراء البئر المستعذبة بالمدينة المنورة وجعلها وقفا للمسلمين (الحديث السابق ذكره).

كما أن بيت المال كذلك تعتبر المؤسسة المالية الحضرية أساسا وهي تابعة للمؤسسات الإدارية والسياسية.

السمات أو الخصائص الأساسية للمدينة الإسلامية

مفهوم العضوية

إذا ما استقينا المفهوم البيولوجي للجهاز العضوي وطبقناه على تحليل المدينة وجدنا المدينة الإسلامية تتسم بنسق عضوي أي أنها جهاز واحد مترابط الأعضاء ومتكامل الوظائف على غرار التكوين العضوي للجماعة الإسلامية. وهي كما وصفها الرسول (ص): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

يتشكل هذا الجهاز من ثلاثة عناصر أساسية وهي المركز وهو المسجد الجامع وهو بمثابة قلبها النابض، يقوم بدور فعال في توحيد الأعضاء ويقوم بهيكلتها وتنظيم حركتها أما العنصر الثاني فهو الخطط وهي بمثابة جسدها وهي التي يستمد منها المركز قوته وضرورة وجوده وماهيته.

أما العنصر الثالث، فهي المسالك والأزقة وهي بمثابة شريان لا تحدث الحركة إلا بها تقوم بإيصال الأعضاء بعضها البعض وتنتظم عبرها حركة الجهاز وهكذا تبدو لنا جسدا واحدا مترابط ومتكامل الأعضاء ولكل عضو دور في النظام الحركي للجهاز.

مفهوم الوظيفية

وكمنظومة اجتماعية لكل عضو فيها دور نجدها كذلك تتوزع فيها وفق التقسيم إلى مركز وإطار، ومحيط ومسالك أهم الوظائف الحضرية بانسجام كامل.

فيقوم المركز وهو المسجد الجامع بالوظيفة الدينية والإدارية والمصالح وهي ذات الطابع الجماعي. أما الإطار وهي الخطط تقوم بوظيفة السكن والإقامة وتقوم المسالك بوظيفة الاتصال ويقوم المحيط وهو ما جاور المدينة حيث تكون الأسواق والمحلات الصناعية وبعدها المزارع بوظيفة الشغل والعمل. وقد وجهت تعاليم الرسول (ص) نظام التوزيع الوظيفي للفراغات الحضرية حسب مفهوم الوظيفة في الإسلام والذي يرتبط أساسا بعبادة الله واعتبارا لحرمة الفراغات (راجع مفهوم الحرمة).

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . (سورة الذاريات 56) .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » . (سورة المؤمنون 115)

« وأن للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم نجزيه الجزاء الأوفى » . (سورة النجم 39)

الانسجام القياسي

ومن منظور عمراني تبدو لنا المدينة الإسلامية ذات نسق عضوي بين أجزائها ونسق وظيفي متعدد ومتكامل، أما تركيبها فنلمس فيه انسجاما تاما بين جزءها وكلها حسب علاقة مطابقة بين الجزء والكل وفق تدرج هرمي لما بها من تباين في الحجم. فالمدينة تتكون من وحدة تركيبية أساسية وهي الدار تتكاثر تدريجيا لتتشكل منها الخطة ومن مجموع الخطط تتركب المدينة في شكل هرمي. وكثيرا ما يستعمل أدباء المدن كلمة دار كناية للمدينة لما بينها من مطابقة في الروح والمضمون والشكل، فكلتاهما فراغ حرام وسكن لأهلها. تبدأ المدينة بوحدة أساسية أو نواة وهي الدار لما لهذا المفهوم من معان. في وسط الدار مركز وغالبا ما يكون فضاءاً أي فناءاً مكشوفاً يهيكل الفراغات والوظائف فيما حوله ويستقطب جل الحركة من جميع الاتجاهات وتتمحور حوله الفراغات والوظائف فتتجه الدار نحو داخلها وتنفتح نحو السماء فتتشكل بذلك واجهتها الرئيسية وهي رأسية وتستتر عن الفراغ الخارجي بجدران تحدد حرمها وتفصل بين داخلها وخارجها منافذ حاجبة كثيرا ما تكون على شكل دهليز يصل بين داخلها والدرب.

من مجموعة هذه الدور تتشكل وحدة الجوار والتي تشترك في فراغ خاص بها وهي الرحبة وهي مركز الخطة وغالبا ما يكون ساحة و فضاءاً يهيكل فراغاتها ووظائفها وغالبا ما تكون فيه بعض المرافق الجماعية والخاصة بالخطة ومنها مصلى ومدفن ومحطة للإبل . . . إلخ تشكل بذلك شبه مدينة مصغرة متكاملة ومترابطة الأعضاء تستر عن الخارج بجدرانها الخارجية وتتجه نحو داخلها وتنفتح نحو السماء و من مجموع الخطط تتكون المدينة الكبرى والشاملة والتي بدورها يقوم مركزها وهو المسجد الجامع الذي ينتظم غالبا حول فناء مكشوف والذي تتمركز فيه المرافق الرئيسية للمدينة الجماعية والاجتماعية. ينفرد المسجد الجامع بهذه الخاصية والوظيفة الجامعة وهو الذي يؤمه كل أهل المدينة الجمعة، فكان بذلك واحدا وشكل رمز المدينة وقلبها النابض. تتمحور كل أطراف المدينة وفراغتها ووظائفها حول هذا المركز والمدينة بدورها تتجه نحو داخلها وتستتر بسورها. وهكذا نجد هذه العلاقة التطابقية بين الوحدة ومجموعها، أي بين الجزء والكل في شكل هرمي قوي التناسق على غرار النسق الاجتماعي الإسلامي الذي يستمد هذه الصورة المتكاملة والمترابطة والمتدرجة من القرآن الكريم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » . (سورة النساء 1)

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » . (سورة الأعراف 189)

« إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . (سورة الحجرات 13)

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . (سورة آل عمران 104)

ومن تعاليم الرسول (ص) « المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

مفهوم المركزية

لهذه الفكرة أهمية كبيرة في تحليلنا للمدينة الإسلامية فهي بارزة في التشكيلة العضوية والنظام الحركي والوظيفي والانسجام التركيبي للمدينة فالمركز يلعب دورا هاما في المدينة الإسلامية فهو القلب النابض ومحرك النشاط الحضري . فهو قلب الجهاز العضوي ومهيكل الفراغات فهو فراغ توزيع واستقطاب هو الفراغ الموحد والجامع على غرار الأمة الموحدة والجامعة، وتتنوع المراكز حسب حجمها الذي يتباين وفق التدرج الهرمي وكلها متطابقة في الدور والوظيفة والنسق المعماري . تنتظم كلها حول أفنية وتحتل المواقع المركزية وتقوم باستقطاب محيطها .

مفهوم الحرمة

مفهوم الحرمة له دلالة قصوى في إدراك وتصميم الفراغ الإسلامي . حسبه تغشى على كل فراغ روح يستوحي منها حرمة تصان ولا تداس تستوجب الوقار والاحترا م . حسب المفهوم الإسلامي للكون كل شيء يسبح لله .

« يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » . (سورة التغابن 1)

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » . (سورة الإسراء 44)

« ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » . (سورة النور 41)

ويستمد كل فراغ روحه ويستوحي حرمته من مدى ارتباطه بالهدف الأسمى وهو عبادة الله .

والعبادة هنا إنما في كونه مكانا للعبادة وآية لعظمة الله .

والعبادة هنا بمفهومها الواسع، أي كل عمل موجه لله وأريد به التقرب إلى الله وأمتثل لأوامر الله . ومن هذا على سبيل المثال لا الحصر:

كان المسجد علاوة على الصلاة المكان الذي يلتقي فيه المؤمنون يتشاورون في أمور دينهم وفي ذلك عبادة كما أن البيت مكان عبادة إذ فيه ينشأ الأولاد ويعطون تربية دينية سليمة وترعى العائلة ماديا ومعنويا وفي ذلك عبادة .

وإماطة الأذى عن الطريق ومساعدة المارين العجزة والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف في الطريق وفي ذلك عبادة . فكل مكان حصل فيه عمل يرجى به الله كان مكان عبادة بدون حصر، فيكون الفراغ بذلك ليس فقط صورة مادية ولا كتلة مبنية وإنما مجالا يعبد الله فيه وهذا ما يغشيه بروح خاصة يعطيه دلالة خاصة وقيمة رمزية لها دورها في المنظومة الصورية للمدينة وهذا جد مرتبط بالهدف الأسمى والرسالة المقدسة عبادة الله . « خلق السموات والأرض بالحق وصوركم، فأحسن صوركم وإليه المصير » . (سورة التغابن 3)

«الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناءاً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم، فتبارك الله رب العالمين». (سورة غافر 64)

فمفهوم الحرمة يساعدنا على إدراك روح الفراغ وقيمته الرمزية كمكان للعبادة، كما يساعد كذلك على إدراك مهامها الوظيفية الضابطة لنوعية الممارسات الجماعية. وهنا تبرز خصائص التصميم المعماري للمدينة الإسلامية. إذ تكمن القيم الجمالية لهذا التصميم في المعاني التي يعبر عنها أو الأهداف التي يرمي إليها وفي مضمون تعبيرها وقوته ويقوى هذا التعبير قدر ما بلغ من إبراز روح الفراغ والتعبير عن فلسفته، فكانت للحدود والستائر وللفواصل والروابط والعقد في المدينة الإسلامية أهمية خاصة، كلها نابعة من المفهوم الروحي للفراغ والمكان وهو الحرمي أو الحرام والحرم. كما كانت لعلاقة الداخل بالخارج ولاتجاه المبنى رمزية خاصة. حسب هذا المفهوم تلتقي الدار كخلية أساسية وكوحدة تركيبية عضوية مع المدينة الكل في علاقة مطابقة بين الجزء والكل، فهي كلها فراغ حرام، فكلتاهما دار تتباين في الحجم لها حرمتها تصان وتحفظ وتضبط الممارسات فيها، فتنطبق على كلتيهما نفس قواعد التصميم ومعالجة الفراغات معماريا.

الحدود

ترسم الجدران الخارجية حدود الفراغ الحرام وهنا تكتسي الحدود معنى خاصا، فعلاوة على الحماية المادية للمبنى فهي حسب المفهوم

الإسلامي حدا رمزيا لحرمة الفراغ. فرمزها إنما يعادل ما يقوم به المصلى حين يضع أمامه شيئا حتى لا يقطع المار صلاته. فالحد هنا يقوم على الرمز فكذلك حد الفراغ[34-35].

الستار والحجاب

استوجبت حرمة المكان استتاره و احتجابه عن أنظار الخارج، فجاءت تلك الجدران كذلك ستارا وحجابا لحفظ حرمة المكان، فكان للجدران الخارجية سواء التي تستتر بها الدار أوالصور الخارجي الذي به تحتجب المدينة قيم رمزية، فهي بمثابة حدودها وستائرها.

الداخل والخارج

كما استوجبت حرمة المكان تميز داخله عن خارجه، فجاءت تلك الجدران بمثابة فواصل بين الداخل والخارج.

الفواصل والروابط

تتجه الدار نحو داخلها وتدير ظهرها إن صح التعبير عن خارجها وهنا برزت أهمية المركزية والفناء لما يقوم به من استقطاب مركزي لمختلف المحاور نحو الداخل.

كما إن المدينة تتجه نحو داخلها ويستقطب مركزها المسجد جميع محاورها نحو الداخل ويفصلها سور عن خارجها. لذا جاءت الجدران بدون شرفات ولا تنفتح نحو خارجها مثلما هو الحال لمفهوم

COMPOSITION ORGANIQUE
PYRAMIDALE

التركيب العضوي الهرمي

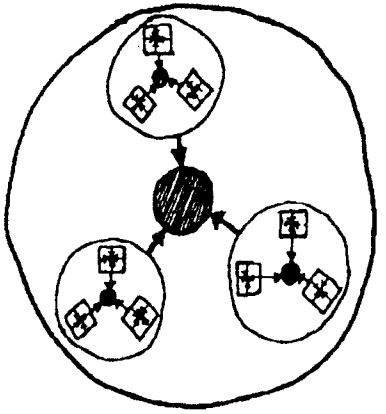

من مجموع الدور(الخلايا الأساسية) تتكون الخطة ومن مجموع الخطط تتكون المدينة. يتم هذا التدرج الهرمي بانسجام كامل بين الجزء والكل اللذان تنطبق عليهما علاقة تطابق في الروح والوظيفة تختلف حجما وفق مستوى تدرجها. وما الدار سوى مدينة صغيرة وما المدينة غير دار كبيرة.

التركيب العضوي الهرمي

DISTRIBUTION
FONCTIONNELLE

التوزيع الوظيفي

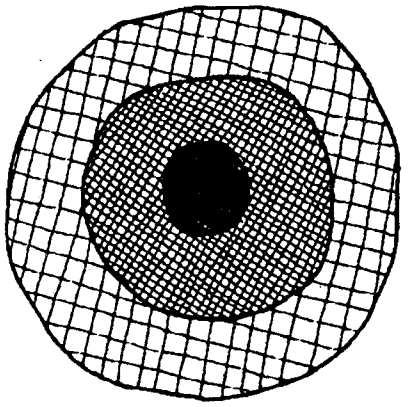

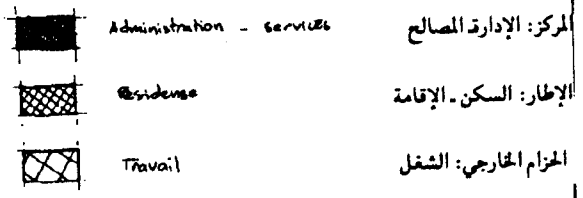

التوزيع الوظيفي

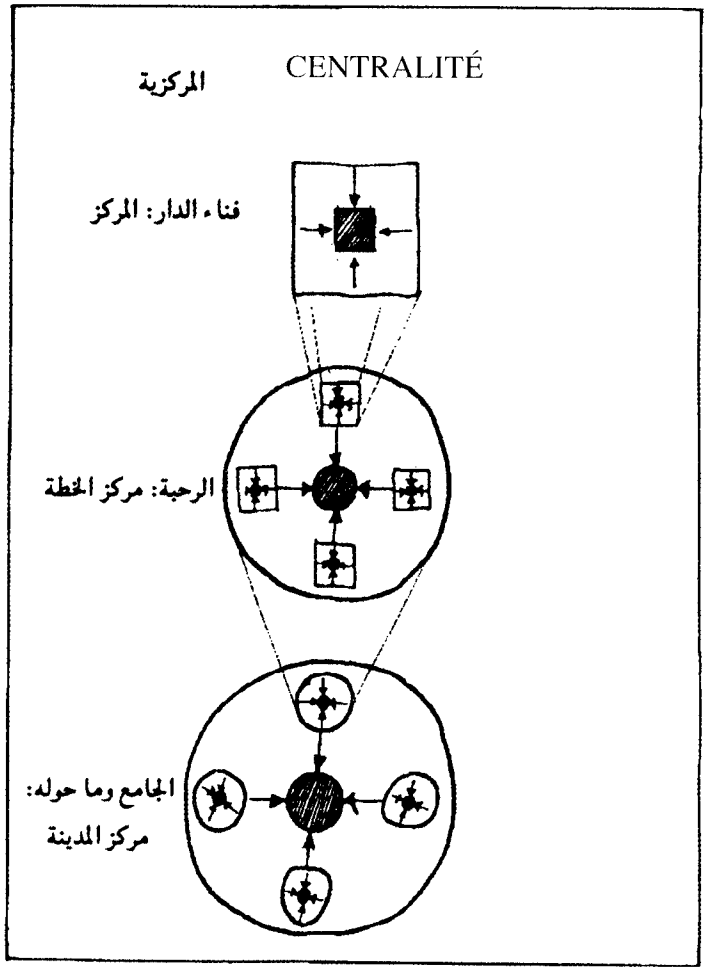

المركزية

القسم الغربي- الجنوبي لمدينة اشبيلية
(عن جانت أبو لغود)

شبكة الطرق والمسالك
اشبيلية

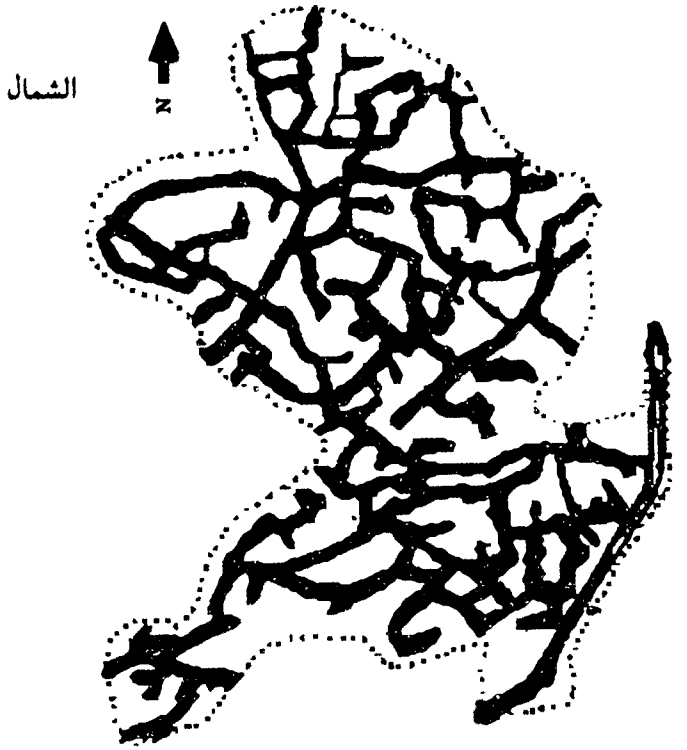

الفسطاط: مخطط جزئي للمدينة الاصلية
(عن جانت ابر لغود)

شبكة الطرق والمسالك
الفسطاط

مدينة سمرقند: مخطط جزئي للمدينة القديمة
(عن جانت أبو لغود)

شبكة الطرق والمسالك
سمرقند

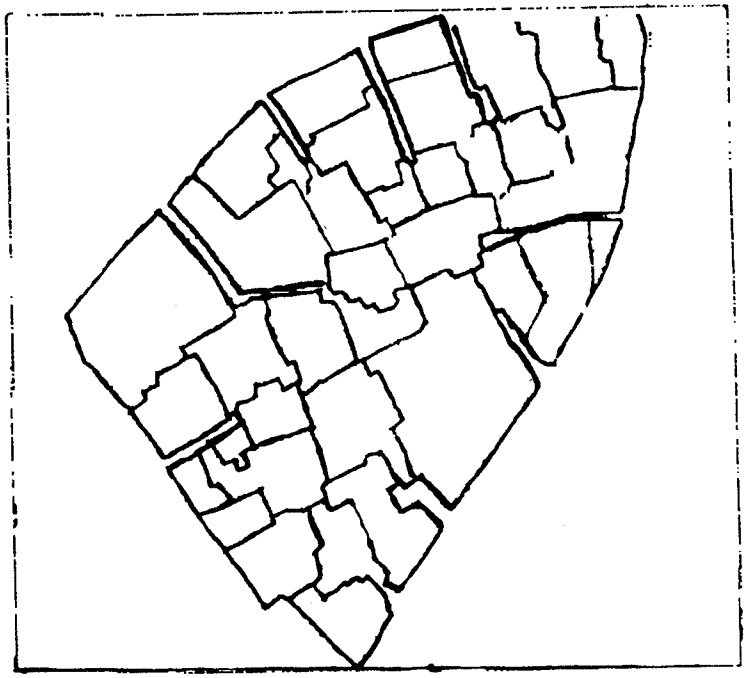

نسيج عمران

الهيكل التنظيمي
لوحدة سكنية

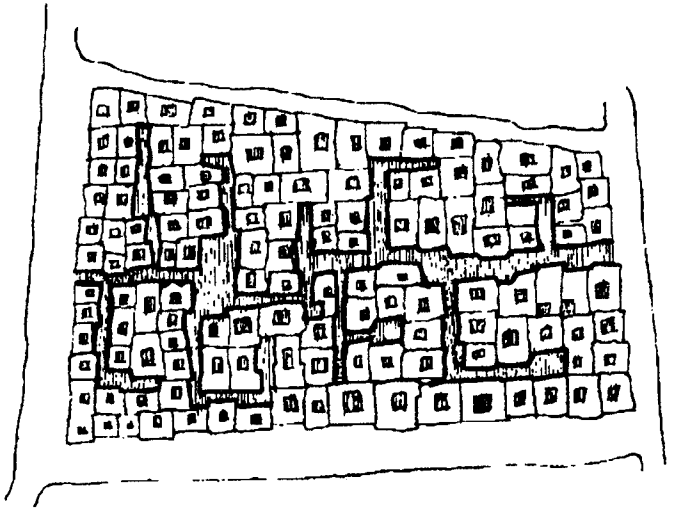

مسالك فرعية غير نافذة (حاجبة)
تتفرع عن المسلك الرئيسي وتربط وحدة
الجوار بالمدينة

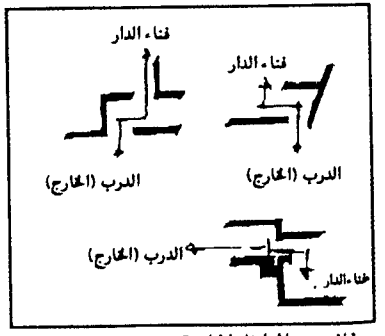

نماذج من المداخل الحاجبة

الواجهة في المدينة الغربية حيث يتداخل الداخل والخارج حيث يسترسل الفراغ الداخلي في خارجه وتشارك الواجهة في تنشيط النظام الصوري للشارع، فالجدران كفواصل في المدينة الإسلامية لا تتعدى فتحاتها منافذ صغيرة للهواء والنور.

بينما ارتبط الداخل والخارج في المدينة الإسلامية بروابط وعقد في شكل منافذ ومداخل حاجبة، نجدها تربط بين فناء الدار والدرب أو المسلك الموصل للشارع العمومي. كما تربط داخل المدينة وخارجها منافذ حاجبة وهي الأبواب ذات الزاوية المنحنية لحجب الداخل عن أنظار الخارج.

الرحبات أو الميادين

أما الميادين كفراغات مكشوفة صالحة للممارسات الجماعية والاجتماعية، وإن شكلت خارج الدار فهي جزء من داخل المدينة. مكان له حرمته تصان وتحفظ تنضبط بآدابها الممارسات الجماعية. لذا فارتبطت نشاطاتها بما يرضي الله ويخدم صالح الجماعة، فاختلف بذلك مفهومها عن مفهوم الساحة في المدينة الغربية ويكمن الاختلاف في روح المكان ذاته، فالميدان العمومي في المدينة الإسلامية إنما يرتبط بالهدف الأسمى في الإسلام وهو عبادة الله وبها يرتبط رقي الإنسانية.

2-2- نشأة الفكر العمراني

انطلاقا من مفهومنا للمدينة وهي كالمادة والروح، شكل ومضمون نسق بين مقومات روحية ومعنوية ومكونات مادية تجسدها.

نرى أن المدينة تتزن قدر انسجام شكلها مع مضمونها وتندثر إذ انفصل شكلها عن مضمونها. فالمدينة الإسلامية إنما تبلغ معانيها بادراك مقوماتها الروحية والمعنوية وهذه المقومات إنما هي نظام كامل متجانس المحاور من فكر يحدد النظرة الفلسفية للوجود، للعالم وللكون وللزمن والمكان إلى نظام اجتماعي يحدد العلاقات إلى فقه يحدد النظام العام إلى آداب توجه سلوك الفرد في المدينة إلخ...

فالمدينة الإسلامية إنما تستمد كيانها ومضمونها وروحها من القرآن الكريم والسنة النبوية. مع تأسيس الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية نشأ هذا الفكر العمراني الذي يعد مرجعا للتنظيم العمراني الإسلامي، مصدره القرآن والسنة النبوية.

وفي هذا الصدد يمكن استقاء الفكرة الأساسية للعمران في الإسلام من القرآن وهي جد متصلة بالنظرة للإنسان خليفة الله في الأرض وللكون الذي سخر الله لهذا الإنسان الذي كرمه الله واستخلفه في الأرض وارتبط هذا التكريم برسالة مقدسة بها يبلغ الإنسان رقيّه وهي طاعة وعبادة الله. فسخر الله الكون للإنسان ليعبد فيه وليعمره لعبادة الله، فجاء التعمير عملا مقدسا قدر ما ارتبط بالرسالة الكاملة وهي عبادة الله.

مفهوم العمران في القرآن

وهذه النظرة تحتاج إلى تهذيب وترتيب اعتمادا على الآيات التي وردت في شأنها والتي كانت المصدر الأساسي للفكر الفلسفي الإسلامي، وذلك بترتيبها والرجوع إلى تفاسير المفسرين وما ورد في شأنها من أحاديث مفصلة وترتيب باب خاص بها وهو العمران في القرآن.

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون ». (سورة البقرة 30)

« إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم ». (سورة الحجرات 13)

« وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها »

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ». (سورة الذاريات 56)

« أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ». (سورة الأنبياء 105)

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ». (سورة القصص 83)

« فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ». (سورة محمد 22–23)

« الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناءا وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ». (سورة غافر 64)

« ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ». (سورة الأعراف 24)

« وان للإنسان إلا ما سعى ». (سورة النجم 39)

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ». (سورة آل عمران 104)

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ». (سورة المائدة 2)

« وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ». (سورة الرعد 26)

« لله الأمر من قبل ومن بعد ». (سورة الروم 4)

التعاليم النبوية والعمران

ولقد جاءت تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلا لكل الأحكام العامة والتي وردت في القرآن فشملت التعاليم النبوية كل الميادين ومظاهر الحياة بما فيها من تنظيم اجتماعي، اقتصادي وسياسي وترسيخ للعقيدة وتفصيل للعبادات، وقد أخذ العمران بمفهومه الشامل قسطا كبيرا منها.

يشمل باب أجر العمارة للعبادة وفقه البنيان وأحكامه وتنظيم المدينة وآداب الارتفاق من الشامل إلى تفصيل الجزئيات وهذا ما اعتمده الفقهاء مع القرآن بعد ذلك في ترتيب فقه البنيان وأحكامه وفقه العمران بصفة عامة. وإن كانت بلغتنا بعض الأحاديث تتعلق بالعمارة، الجوار، الارتفاق وآداب المدينة إلخ،لكنه يجب أن يبذل جهد حتى تحصر جميع الأحاديث اعتمادا على تصنيف لهذا

الأحاديث حسب أبواب ولدينا أمثلة لذلك على سبيل المثال لا الحصر.

1- العمارة وأصولها الروحية

ومما عثرنا عليه في هذا الباب الحديث التالي:

قوله (ص): «من بني بيتا يعبد الله فيه من حلال بني الله له بيتا في الجنة من در وياقوت»[36] وقال:

«كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه»

2- العقار وتنظيم الأراضي

كقوله صلى الله عليه وسلم كما رواه طاووس:

«عاري الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعدي فمن أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين»[37].

البنيان وأحكامه

وفي هذا الباب تندرج كل الأحاديث المتعلقة بالتنظيم المعماري للمدينة والبنيان وفيها قسم هام يتعلق بنظام الوقف.

كقوله صلى الله عليه وسلم: فيما رواه ابن عباس رضي الله عنه «لا ضرر ولا ضرار للرجل أن يضع خشبة في حائط جاره وإذا اختلفتم في الطريق فاجعلوها أدرعا»[38].

وكقوله أدرعا «من بنى فوق ما يكفيه جاء يوم القيامة حاملا له على عنقه»

وقال أيضا «من بني فوق عشرة أدرع ناداه مناد من السماء يا عدو الله إلى أين تريد أي أن كان فوق ما يكفيه وفخرا»[39].

نظام عمران المدينة

وتشمل الأحاديث المتعلقة بآداب المدينة والارتفاق بمرافقها وآداب الجوار وقسم هام يتعلق بسياسة المدينة بما فيها من تحديد المسؤوليات والسلطات إلى التعاليم التي تحث على العدل والأمن لضمان الراحة والاطمئنان الضروري للعمران.

كقوله (ص) لمعاوية ابن الحكم السلمي:

«إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[40].

وفيما رواه أنس قوله (ص) من أسرج في مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش يصلون عليه ويستغفرون له ما دام ذلك الضوء فيه وإن كنس فقد نقد الحور العين»[41].

وعن أبي سعيد الخذري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والجلوس على الطرقات. فقالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال فإذا أبيتم فأعطوا الطريق حقها قالوا وما حقها؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام وأمر بالمعروف ونهي عن منكر»[42].

وربما اشتمل هذا الباب على أقسام

سياسة المدينة / آداب المسجد / آداب الطرقات / آداب الأسواق / علاوة على كل الأحاديث العامة حول النظام الاجتماعي

والسلوك الحسن والتي لها علاقة وطيدة بالنظام الوظيفي للمدينة وبأخلاقياتها. ويبقى الجهد ليبذل حتى تُجمع كل هذه الأحاديث ويتم تصنيفها في أبواب. كما نضيف كذلك لهذه الحقبة الأولى التأسيسية للفكر العمراني المراحل الأولى من الفقه الإسلامي وذلك حسب ما سار عليه واجتهد فيه الخلفاء الراشدون من بعد الرسول (ص) وربما وجدنا في فقه أبي بكر الصديق وفقه عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما ومن تبعهم عثمان وعلي رضي الله عنهما ما ينمي هذا الفكر إن شاء الله.

2-3- أولى المدن الإسلامية

خاصية المدن الإسلامية الأولى أنها مدن جديدة اعتمدت على نظام تخطيطي سابق وقد ارتبط إنشاؤها بالفتوحات الإسلامية، فكانت بادئ ذي بدء قواعد عسكرية أقيمت في النقط الحساسة من محاور الفتوحات وسرعان ما أخذت شكل المصر حيث ارتقت إلى مرتبة عواصم إقليمية لإدارة الأقاليم المفتوحة.

وقد أنشأ أغلبها في عهد خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وهي: البصرة والكوفة، والفسطاط. أما الخاصية الأخرى لهذه المدن الأولى، فإنها أنشأت في ظروف حرب لذا فقد مر تشكيلها المادي بعدة مراحل ولم تعرف بناءاً قويا إلا في العهد الأموي.

مدينة البصرة

وقد مصرت في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب حوالي (14 هـ وقيل 17 هـ) ارتبط تمصيرها بالفتوحات، فكان لاختيار موقعها

أهمية كبرى. ويروي ياقوت أن المسلمين كتبوا إلى الخليفة «إنا وجدنا بطاسان مكانا لا بأس به فكتب إليهم أن بيني وبينكم دجلة لا حاجة في شيء بيني وبينه دجلة أن تتخذوه مصرا ثم قدم عليه رجل من بني سدوس يقال له ثابت فقال يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر وفيه مسالح للعجم يقال له الخريبة ويسمى أيضا البصيرة بينه وبين دجلة اربعة فراسخ له خليج بحري فيه الماء إلى أجمة قصب، فأعجب ذلك عمر»[43] وقد ولاها عتبه ابن غزوان وقد استأذن عمر في تمصير البصرة وقال إنه أحبذ للمسلمين من منزل إذا اشتى شتوا فيه وإذا رجعوا من غزوهم لجأوا إليه فكتب إليه إن ارتد لهم منزلا قريبا من المراعي والماء فكتب إليه «انني وجدت أرضا كثيرة القضة[44] في طرف البر إلى الريف ودونها منافع فيها ماء وفيها قصباء، فلما وصل الكتاب عمر قال: هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب فكتب إليه أن انزلها فنزلها وبني مسجدها من قصب وبني دار إمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم كانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءه كما كان[45].

ويروي ياقوت أنه في ولاية أبي موسى بنيت البصرة بالبن وقيل 17 هـ.

مدينة الكوفة

وقد كان تمصيرها كما يروي ياقوت الحموي «أما تمصيرها وأوليتها، فكانت في أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في السنة

التي مصرت فيها البصرة سنة 17 هـ 638 م. وقد كان لاختيار موقعها اعتبارات اجتماعية وعسكرية واقتصادية تبرز من خلال كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو منشأها، إذ يقول فيه «إن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة والبعير، فلا تجعل بيني وبينهم بحرا بالريف.»[46]

أما عن تخطيطها فأول مكان حدده سعد هو مكان المسجد وهو مركز المدينة وقد اعتمد على طريقة رمي السهم لتحديد المكان. فقد رمى سهما مهب القبلة، فعلم موقعه ثم سهما على مهب الشمال فعلم موقعه ورمى سهما إلى الشرق وآخر إلى الغرب ثم علم بعدها موقع المسجد ودار الإمارة في مقام الغالي وما حوله واقتطع لأهل اليمن في الجانب الشرقي ولأهل نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات وترك ما دونها للمسجد ودار الإمارة[47]. ولإنشاء المسجد يروي ياقوت أن عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد «إن اختط موقع المسجد الجامع على عدة مقاتلتكم فخط على أربعين ألف إنسان»[48]. وقد ولي سعد بن أبي وقاص السائب بن الأقرع وأبا الهياج الأسدي خطط الكوفة وتوزيعها[49].

وقد تم توزيع الخطط وفق التركيب الاجتماعي والمطابق لنظام تقسيم الجيش إلى وحدات قبلية.

وقد قسمت المدينة إلى اسباع وفق عدد المجموعات القبلية السبعة المكونة للجيش وقد ذكرها الطبري بالتفصيل في كتابه ومنهم:

1- أهل كنانة وحلفاؤها وهم أهل العالية المقربين للعامل والمتعاونين معه

2- أهل اليمن ومنهم فظاعة وغسان باجيلة، كندة، حضرموت وأزد.

3- همدان وحمير هم كذلك من أهل اليمن.

4- تميم ورباب وهم من مضر.

5- أسد ونمير ومحارب وتغلب من بكر.

6- عبد القيس.

7- طي.

وكان منهم بدو ورحل وحضر من المدن وخاصة همدان وحمير من اليمن وحضرموت وعناصر إيرانية من الفرس وعرب نصرانيين وقد تركت لهذه القبائل عملية التنظيم الداخلي للخطة وإنشاؤها كما فعل الرسول (ص) في المدينة غير أن الخليفة عمر رضي الله عنه زود سعد بتعليمات عامة حول تنظيم البناء وقد سار منهج رسول الله (ص).

ويروي ابن خلدون «أن أهل الكوفة استأذنوا عمر بناء الكوفة بالحجارة لما شب حريق بالقصب الذي بنوا به فقال «افعلوا ولا يزيدن احد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة».

وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس ألا يرفعوا بنيانا فوق القدر قالوا وما القدر؟

ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد[50]. وفيما يروي عبد الستار عثمان عن اليعقوبي أن الخليفة حدد اتساع الشوارع بسبعة أذرع كما فعل الرسول (ص) وأمر بأن تتوسط كل خطة ساحة أو رحبة طول ضلعها ستون ذراعا»[51].

أما عن طرقاتها، فيروي ماسنيون استنادا إلى الطبري أنه كان بالكوفة خمسة عشر منهجا وهي الطرق الرئيسية وكانت في البداية عبارة عن فواصل بين مجموعات الخيم، كما رتب وضعها سعد رضي الله عنه وكلها تنطلق من مركز المدينة وهو المسجد الجامع أخذت بعد ذلك شكل سكك عريضة حسب ما يرويه ماسنيون ذات خمسون ذراعا عرضا وهذا ما يتناسب تقريبا والمقاييس التي يوردها الرواة على تنظيم شوارع البصرة إذ جعل أهلها عرض شارعها الأعظم ستون ذراعا وما سواه عشرون ذراعا وعرض كل زقاق سبعة أذرع وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيلهم ومقابر موتاهم[52].

أما التحصين، فيبدو أن المدينة لم تكن محصنة بصور في البداية ما عدا تلا صغيرا مسنة جابر في الشمال الشرقي ونهرا في الجنوب الشرقي هربويت التي كانت تشكل حدودا[53].

أما عن الميادين والفراغات الحرة فعلاوة على الرحبة التي سميت فيما بعد الميدان المركزي حيث يوجد المسجد الجامع ودار الأمارة، فقد شكلت رحبات الخطط ميادين لممارسات جماعية اجتماعية وهي فراغات مكشوفة وغير مبنية تتوسط الخطط وعلاوة على استعمال قسم منها مقبرة كانت ميادين عرض السلاح والمهرجانات.

أما المنشآت الاقتصادية، فيذكر ماسنيون استنادا إلى الطبري أنه وجدت بالكوفة منذ البداية دار الرزق وهي بناية تجمع فيها الغنائم وتوزع على المقاتلة وكانت في مخرج قنطرة الفرات.

ويبدو أن الأسواق كانت انطلاقا من الميدان في بعض المحاور العريضة، كما وزعت خارج الكوفة في سواد الكوفة أراض منها ما هو موات وما هو خراج وأما عن نوعية بناءها فقد مر بمراحل قبل أن يعرف بنيانا ثابتا.

فكما يروي ياقوت عن ابن عباس قال: «كانت منازل أهل الكوفة قبل أن تبنى أخصاصا من قصب إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها وإذا عادوا بنوها، فكانوا يغزون ونساءهم معهم، فلما كان في أيام المغيرة بن شبعة (22 / 24 هـ) بنت القبائل باللبن من غير ارتفاع ولم يكن لهم غرف[54].

ولم يتم بناؤها بالأجر إلا في أيام زياد (50هـ) وقد وقع فيها تنظيم وتفنن في البنيان، وفي عهد بني أمية حيث استقرت الأحوال وتدفقت الخيرات ومال الحكام إلى البذخ والترف وهذا ما سنراه في الباب الثاني النمو والتطور، إن شاء الله.

مدينة الفسطاط

أما الفسطاط، فقد أسسها عمرو بن العاص في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك سنة 20 هـ الموافق لـ 642 م، وقد خضعت لنفس الخطة التنظيمية للمدن الإسلامية الأولى وقد أمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يختار موقعا كما قال عمر رضي الله عنه «لا تنزل بالمسلمين منزلا يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر»[55] وبعد أن حدد عمرو موقع المسجد الجامع اختط للقبائل فيما حوليه وقد ولى معاوية بن حديج وشريك بن

سمي وعمر بن قحزم وجبريل بن ناشرة المعافري على الخطط، فكانوا هم الذين نزلوا القبائل وفصلوا بينهم. وأما عن اختيار موضع الجامع، فقد اعتمد عمرو بن العاص على نصب راية في تلك المحلة وكان موضع هذا الجامع جبانة وكان طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا ويقال أنه وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلا من الصحابة الكرام، منهم الزبير بن العوام[56]. وفي خلاصة الأمر نجد أن كل هذه المدن الأولى هي إنشاءات جديدة ارتبط إنشاؤها بالفتوحات فكانت قواعد عسكرية في بداية الأمر ولم يكن إنشاؤها بنيانا ثابتا ولم تأخذ شكلا ماديا قويا إلا في عهد بني أمية. لكنها رسمت القواعد الأساسية للتنظيم العمراني الإسلامي وقد ظهرت في هذه الفترة من الفتوحات أولى التنظيمات الإقليمية وقد جاء على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

الأمصار سبعة فالمدينة مصر والشام مصر والبحرين مصر والبصرة والكوفة[57].

كما ظهرت دار الإمارة كمنشأة جديدة وهي مركز الشؤون الإدارية والسياسية تجاور المسجد الجامع وبها يجلس العامل وهو الخليفة المفوض على إدارة المصر.

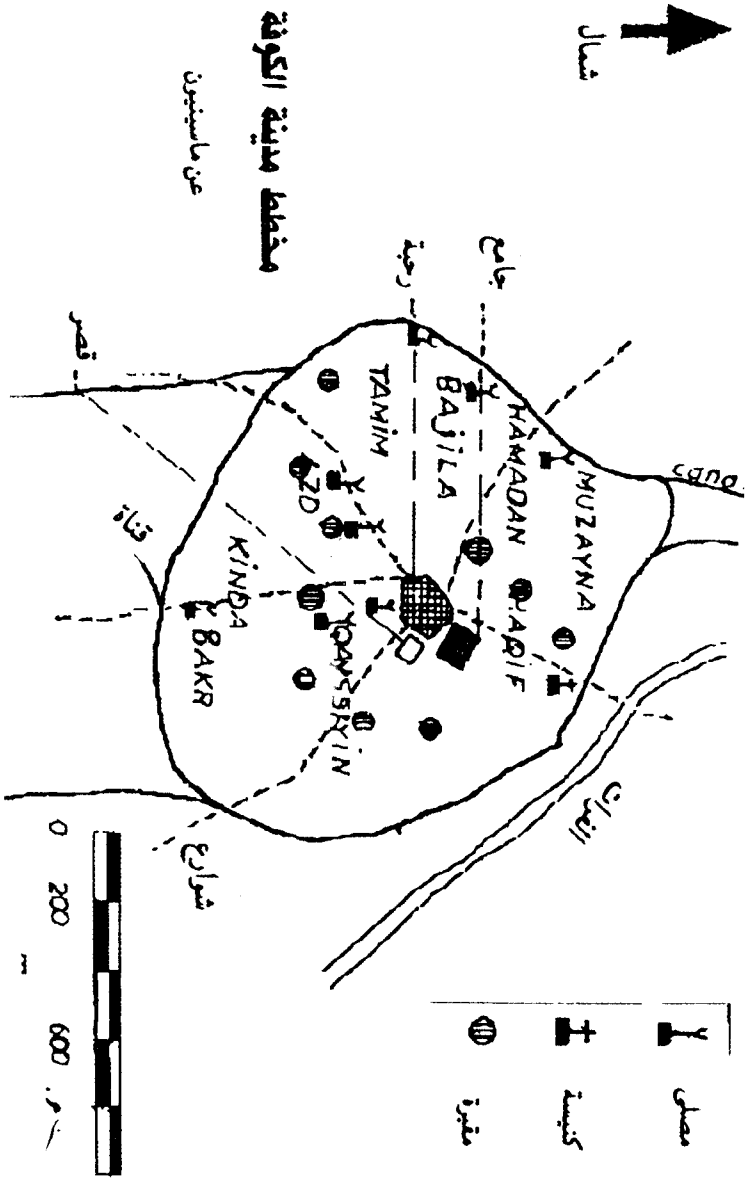

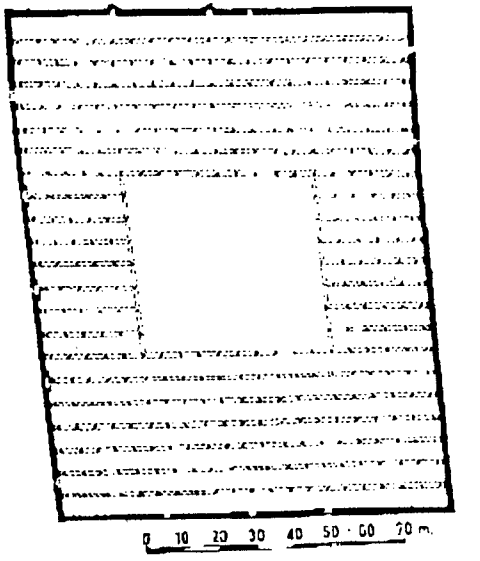

جامع عمر بالفسطاط

مسجد عمرو (فرضية كريسويل)

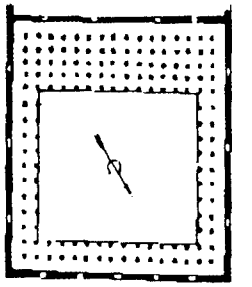

جامع الكوفة

جامع الكوفة بعد الإصلاحات بتاريخ
50 هـ الموافق 670 م
(عن قولفين بل)

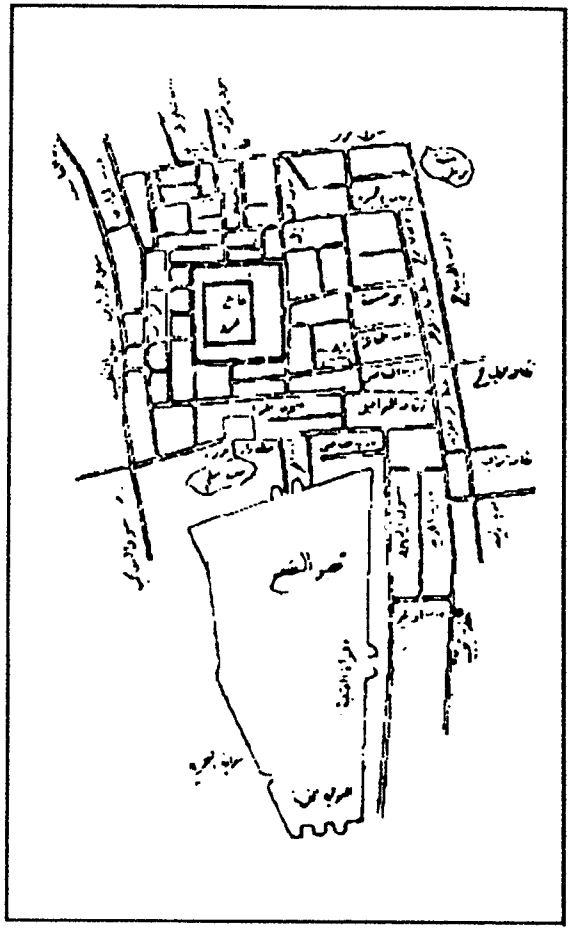

عن كتاب المدينة الاسلامية
د . محمد عبد الستار عثمان

مخطط مدينة الفسطاط

المراجع باللغة العربية للفصل الثاني

تاريخ العمران والمدن الإسلامية

1ـ الجنحاني الحبيب: المغرب الإسلامي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.

2ـ الجيلالي عبد الرحمان: تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، المدية، مليانة؛ مطبعة صاري، الجزائر.

3ـ الدولاتي عبد العزيز: مدينة تونس في العهد الحفصى، تعريب الشابي. م والمؤلف، شركة فنون الرسم للنشر والصحافة، تونس، 1981.

4ـ العربي اسماعيل: المدن المغربية، م. وك، الجزائر، 1984.

5ـ المدني أحمد توفيق: المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، نشر مكتبة الإستقامة، الجزائر، المطبعة العربية (طبع)، تونس، 1365هـ.

6ـ حليمي عبد القادر: مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830، المطبعة العربية، الجزائر، 1972.

7ـ صقر أحمد: مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار بوسلامة، تونس، 1959.

8ـ بورويبة رشيد: الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، د.م.ج، الجزائر، 1977.

9ـ العروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة، د. م. ج، 1984.

10ـ د. خلاف محمد عبد الوهاب: قرطبة الإسلامية في القرن 11 الميلادي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.

11ـ مقيبس بشير: مدينة وهران، م. و. ك، الجزائر، 1983.

12ـ الدكتور عصام سالم: جزر الأندلس المنسية، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.

13ـ حمادي محمد حاسم: الجزيرة الفراتية والموصل (744 / 833م). دار الرسالة للطباعة، بغداد، 1977.

14ـ الشماخي عبد الله بن عبد الله المجاهد: الإنسان والحضارة، دار الهنا للطباعة، اليمن، 1972.

15ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان (5 أجزاء)، دار صادر ودار بيروت للنشر، 1979.

16ـ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، 1906.

17ـ مصطفى الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، 1982.

18ـ القزويني: آثار البلاد في أخبار العباد، دار صادر، بيروت، من دون تاريخ.

19ـ المسعودي: مروج الذهب، بيروت، 1965.

20ـ اليعقوبي: البلدان، ليدن.

21ـ السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (3 أجزاء)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، 1971.

22ـ بن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق لجنة حفظ التراث، بيروت، 1980.

23ـ البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت.

24ـ المقريزي: الخطط.
25ـ عبد الله ابن إدريس: مجتمع المدينة في عصر الرسول (ص)، نشر جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، الرياض، 1982.
26ـ د. خليل السمرائي وثائر حامد محمد: المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد النبوة، الموصل، 1984.
ـ الأنصاري: آثار المدينة المنورة.
28ـ صديق شهاب الدين: تخطيط المدن وتاريخ الحصون، مجلة العمارة، القاهرة، 1939.
29ـ عيسى سليمان وآخرون: العمارات العربية الإسلامية في العراق، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982.
30ـ شريف يوسف: تاريخ فن العمارة العراقية، دار الرشيد للنشر، 1982.
31ـ د. محمد عبد الهادي شعيرة: من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة، في دراسات الآثار الإسلامية، (الأليسكو)، 1979.
32ـ ظاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، مطبعة النعمان، بغداد، 1967.
ـ بحشل: تاريخ واسط، تحقيق كوركيس غواد، عالم الكتب، 1986.

2 ـ المدينة الإسلامية

1- المدينة الإسلامية: مجموعة مقالات من حلقة تدريس بجامعة كامبرج، نشر اليونسكو، السيكومور/ فجر، تحت إشراف ريب سيرجنت، ترجمة أحمد محمد تعلب، 1983.
2- المدينة الإسلامية: محمد عبد الستار عثمان، سلسلة عالم المعرفة عدد 128، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1988.
3- أسس وتنظيمات المدينة المسلمة: صلاح الدين كشريد، مؤسسات ع. بن عبد الله، تونس، 1975.
4- المدينة العربية: ندوة المدينة المنورة 1981 حول المدينة العربية، نشر منظمة المدن العربية تحت إشراف اسماعيل سراج الدين وسمير الصادق، 1982.
5- الإسكان في المدينة الإسلامية: ندوة أنقرة 1984، العواصم والمدن الإسلامية، إعداد حركة الدراسات التخطيطية والمعمارية، القاهرة.
6- مفهوم العرب للمدينة الإسلامية: عبد الجبار ناجي، مجلة المدن العربية، نشر المنظمة العربية للمدن، عدد 14، السنة الثالثة، 1984.
7- المدينة الإسلامية: عبد الرحمان زكي، مجلة الفيصل، عدد 27.
8- مدن عربية: نقولا زيادة، دار الطليعة، بيروت.
9- القيسريات الإسلامية في مصر والمغرب والأندلس: أحمد الطوخي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية عدد 28، 1981.
10- صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية: د. سعيد عبد العزيز الراشد، الربدة، نشر جامعة الملك سعود، 1986.

3- الفكر العمراني (نظريات العمران: سياسة، اجتماع، آداب... إلخ)

1 ـ ابن خلدون: كتاب المبتدأ والخبر، المجلد الأول، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني المدرسة، بيروت، 1961.

2 ـ أبو نصر الفارابي: كتاب السياسة المدنية، تحقيق وتعليق الدكتور فوزي منري نجاز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964.

3- ابن تيمية: مجموعة الرسائل الكبرى (جزئين): الطبعة الأولى، المطبعة العامرة الشرفية، مصر، 1923 هـ.

4- د. قربان ملحم: خلدونيات، السياسة العمرانية، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر، بيروت، 1983.

5- ابن سلام: كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل الهراس، مكتبة التجليات الازهرية، القاهرة، 1975.

6- الماوردي: الأحكام السلطانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990.

7- حسان علي الحلاق: الإدارة المحلية الإسلامية، المحتسب، الدار الجامعية، بيروت، 1980.

8- محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، رسالة دكتوراه، جامعة أسيوط، القاهرة، 1980.

9- ابن تيمية: المنتقي، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث والآثار والإفتاء السعودية.

10- أبو يوسف: كتاب الخراج.

11- ابن زنجوبه: كتاب الأموال: تحقيق د: شاكر ذيب فياض، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، 1986.

12- محمد عبد الستار عثمان: العمارة الحربية الإسلامية بين النظرية والتطبيق، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، عدد 7، 1405هـ.

13- د. محمد مصطفى حماد: تخطيط المدن وتاريخها، 1965.

14- د. عرفان سامي: نظريات العمارة، دار المعارف، القاهرة.

15- عبد العزيز سالم: التخطيط ومظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى، مجال المجلة، عدد 8، أغسطس 1957.

16- فريد شافعي: العمارة الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، 1982.

17- أحمد فريد مصطفى: المكانية، تحقيق مقومات ومبادئ المدينة العربية الإسلامية في التخطيط العمراني المعاصر، نشر أمانة مدينة الرياض.

4ـ فقه البنيان والعمارة

1 ـ محمد الداودي: المسجد في الكتاب والسنة وأقوال العلماء، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.

2ـ محمد جلال الدين القاسمي: إصلاح المساجد من البدع والعوائد، نشر المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، 1899.

3ـ محمد ابراهيم بن يوسف الفائز: البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1406هـ.

4 ـ ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق عبد الرحمان بن صالح الأطرم، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الشريعة، 1403هـ.

5 ـ أبو العباس أحمد: تقسيم الأراضين، منسوخ بدون تاريخ، ميزاب.

6 ـ يحيى ابن آدم القرشي: كتاب الخراج، تحقيق د. حسين مؤنس، دار الشروق، بيروت، 1988.

7 ـ أبو يوسف: كتاب الخراج.

8 ـ ابن سلام: كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل الهراس، مكتبة التجليات الأزهرية، القاهرة، 1975.

9 ـ ابن زنجويه: كتاب الأموال، تحقيق د. شاكر ذيب الفياض، نشر مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية، 1986.

10 ـ محمد بن يوسف اطفيش: مختصر العمارات، التكميل فيما أخل به كتاب النيل، طبعة قديمة، ميزاب.

هوامش الفصل الثاني

1- ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر المجلد الأول، الطبعة الثانية، بيروت، 1967.

2- الفارابي: السياسة المدنية، تحقيق د. فوزي ـ م. نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964.

3 ـ 4 ـ محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة 128، الكويت أب، ص 18/17.

5- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق.

محمد جلال الدين القاسمي: إصلاح المساجد من البدع والعوائد، نشر المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ص 54/49، 1399هـ.

عبد الجبار ناجي: مفهوم العرب للمدينة الإسلامية، مجلة المدن العربية، عدد 14، ص 50، 1984.

6- محمد عبد الستار: المرجع السابق ص 12.

7-محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 20.

عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص 53/52.

8- ابن خلدون: المرجع السابق، ص 609.

9- الفارابي: المرجع السابق، ص 69.

10 ـ 11 ـ ابن تيمية: مجموعة الرسائل الكبرى، ج 1، القاهرة، 1323 هـ.

12- ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد 5 ص 82، دار صادر، بيروت، 1979.

13-محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص 52، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أب 1988.

خليل السمرائي وثائر حامد محمد: المظاهر الحضارية للمدينة المنورة عهد النبوة، الموصل، 1984.

الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، ج2 ص479، ج3 ص 201، القاهرة، 1968 .

السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دارالمصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج1 ص 539، ج 2 ص747ـ748، ج1 ص 20، بيروت، 1971 .

14- ياقوت الحموي: المرجع السابق، م 5،ص 83.

15- 16- 17- ياقوت الحموي: المرجع السابق، م 5، ص 86/83 .

18- ياقوت الحموي: المرجع السابق، م5، ص 86/83.

19- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص58 .

السهمودي، المرجع السابق، ج3 ص 814.

20- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص59 .

السهمودي، المرجع السابق، ج2 ص 732/725 .

21- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 60.

22- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 60.

23- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 61.

24- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 63 .

أبو يوسف: الخراج: ص 65 .

ابن زنجويه، كتاب الأموال، تحقيق شاكر د. ب فياض، نشر مركز الملك فيصل للبحوث السعودية، 1986 .

25- ياقوت الحموي: المرجع السابق، ص 82.

26- محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 63.

27- فتوى ابي حنيفة في صلاة الجمعة .

28- محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 62 .

صالح لمعي مصطفى: المدينة المنورة تراثها المعماري: ندوة المدينة العربية، ص 57، المدينة المنورة، 1981.

29- ابن تيمية: المنتقي، ص 371 ج 2، نشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث والإرشاد، السعودية .

ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق عبد الرحمن صالح الأطرم، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1403هـ.

30- محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 57.

ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والسيرة، تحقيق لجنة حفظ التراث، ج1 ص 351، بيروت، 1980 .

31- 33- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق .

34- الشيخ محمد أطفيش: مختصر العمارات، ص 13 (منسوخ)

35- لقد خصص كتاب الأراضين لأبي العباس أحمد في فقه الأراضين قسما خاصا بالحريم .

36-محمد الداودي: المسجد في القرآن والسنة، ص 99، نشر د . م . ج، الجزائر، 1988.

37- 39- أحكام البنيان لإبن الرامي، المرجع السابق .

40-42- كشريد صلاح الدين: المدينة المسلمة، ص 49، نشر مؤسسات ع . بن عبد الله، تونس، 1975 .

محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص62.

الشيخ أطفيش: المرجع السابق، ص 13.
محمد الداودي: المرجع السابق، ص 99.
محمد الداودي: المرجع السابق، ص 105.
كشريد صلاح الدين: المرجع السابق، ص 49.
43-49-معجم البلدان لياقوت الحموي، المرجع السابق.
50- ابن خلدون: المرجع السابق، ص 638، م1.
51- محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 180.
محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 180.
52-ماسينيون لويس:
Louis Massignon, *Explication du plan de Basra et Koufa*, In *Opera Minora* (4), T. III, Beyrouth, Dar El Maarif, 1963.

53- ياقوت الحموي: المرجع السابق، م 4، ص 264.
54-55- ياقوت الحموي: المرجع السابق، م 4، ص 265.
56-ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، م1، ص190، دمشق، 1951.
محمد جاسم حمادي: الجزيرة الفراتية، رسالة ماجستير في التاريخ، ص 83، جامعة بغداد.

الفصل الثالث

العمران الإسلامي
تصور ومفاهيم

1ـ مبادئ منهجية

نحاول في هذا الباب ضبط بعض الأسس المنهجية وعرض بعض المفاهيم الأساسية للمشروع العمراني الإسلامي التصور.

1.1ـ التصور الشمولي

أي تصور المشروع الحضاري مترابط ومتكامل الأجزاء في انسجام كامل ويكون من الخطأ تهميش جزء منه وفصله عن الباقي، يتكامل كل الأجزاء ويتفاعل بعضها مع البعض سعيا في تحقيق الانسجام الكامل وفصل جزء عن الباقي يؤدي حتما إلى عرقلة كلية للمشروع وتوقف لحركته.

ويتفاعل كل جزء وفق وتيرة ومنطق داخلي خاص له ومستقل به كمنظومة لذاتها وذلك هو البعد الداخلي وكذلك بالتفاعل مع بقية الأجزاء كجزء من منظومة أكبر.

يتصل أقسامها بعضها ببعض في تفاعل دائم للحفاظ على انسجام الكل، وذاك هو موقع المنظومة العمرانية في المنظومة الحضارية الشاملة.

2.1ـ التمييز بين المفاهيم والأشكال

وهو التمييز بين الأصول والفروع وبين الثوابت والمتغيرات.

أما المفاهيم الأساسية:

فهي الأدوات النظرية للمعرفة وهي الأسس العامة للتصورات الإجمالية والشمولية للأشياء، وتحذو حذوها الأصول الشرعية وهي الضوابط الشرعية الأساسية في شريعة الله.

وهي أطر مفهوميه واسعة الأفاق وعميقة البعد تقوم بتأطير الفكر والعقيدة والتشريع وهي التي تحدد الإطار الأساسي والعام لبلورة الأشكال التي بها تجسد المفاهيم في الزمن والمكان وكلها بمثابة ثوابت.

أما الفروع: فهو ما يتفرع عن تلك الأصول من أشكال وأحوال في جزئياتها وتفاصيلها والتي تمليها أحكام الزمن والمكان.

وتحذو حذوها الأشكال التي تمثل مختلف الهيئات الملموسة التي تجسد تلك المفاهيم الأساسية وفق أحكام وضرورات الزمن والمكان.

وعلى غرار الاجتهاد في الفقه الذي يعني معالجة الأحوال العامة التي تمليها ضرورة الزمن والمكان وذلك بالانقياد والانضباط بقواعد الشرع، يكون الإبداع في العمران أو في الميادين الأخرى بمثابة اجتهاد في إبداع الأشكال تجسد المفاهيم الأساسية وفق أحكام الزمن والمكان.

ونظرا للتغيير والتقلب التي تتميز به الأحوال البشرية تحت وطأة أحكام الزمن والمكان غالبا ما تنحصر صلاحية الأحكام الفرعية والأشكال في زمن معين ومكان معين فتحذو الفروع والأشكال حذو المتغيرات لتغير وتحول أحوالها وفق مستجدات الزمن والمكان.

بينما تبقى المفاهيم والأصول والأطر الأساسية الثابتة واسعة الأفاق وبعيدة العمق كضوابط أساسية للاجتهاد الفقهي والإبداع الفكري.

3.1- التأصيل والمعاصرة

يشكل التأصيل والمعاصرة أهم المحاور لمنهجية عمل سليمة وهادفة إلى تجسيد المشروع الإسلامي المستقبلي.

أما التأصيل

فيعني ضبط المفاهيم الأساسية التي تشمل مجموع التصورات الشمولية للأشياء وضبط الأصول الأساسية والتي صنفها علماء الشريعة في شكل قواعد شرعية أساسية (أصول الدين) وذلك بناءاً لأساس صحيح، يكون مصدرا لكل اجتهاد وإبداع وإطارا يضبط الحركة الفكرية والتشريعية التي تسعى لمعالجة الأحوال وإبداع الأشكال وفق تقلب أحكام الزمان والمكان.

أما المعاصرة

فتعني الاجتهاد المتواصل في معالجة الأحوال (فقهيا) والاجتهاد المتواصل في الإبداع (فكريا بصفة عامة) ذلك باعتبار بصمة الزمن والمكان وتجاوبا مع أحوالها وضروراتها ومستجداتها بالانضباط أساسا بقواعد الشرع وأصول الدين (في التشريع) وبالمفاهيم الأساسية في الميدان الفكري والإبداعي عموما وهذا يتجاوب تماما مع مبدأ صلاحية الإسلام في كل زمان ومكان ومع مبدأ السيادة لله (شرع الله) والحكم للإنسان.

4.1- منهجية البحث العمراني

تتشكل منهجية البحث من محورين، البحث النظري والبحث التاريخي والعمراني.

يعتمد البحث النظري على ضبط المفاهيم الأساسية من المصادر الأساسية والفرعية أو الثانوية.

المصادر الأساسية

هي القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك بضبط أهم المفاهيم التي تشمل التصورات العامة والشمولية للأشياء وضبط الأصول الأساسية الشرعية وهذا ما قام به علماء الشريعة.

المصادر الثانوية أو الفرعية

ويعتمد عليها بصورة ثانوية وبتحفظ لكونها فرعية ثانوية وغير مستقلة عن زمانها ومكانها وتتشكل من:

- الأحكام التشريعية المتعلقة بالبنيان والعقار، إلخ... والتي تعرف بفقه البيان وأهم أبوابها، كما وردت في الكتب الفقهية هي القسمة والشفعة والإرتفاق... إلخ.

ومنها ما يسمى بتقسيم الأراضين، كمؤلف أبي العباس أحمد ومختصر العمارات للشيخ اطفيش... إلخ.

- الأحكام التشريعية التي ترتبط بشكل حساس بالعمران والمعروفة بفقه الخراج وفقه الأموال... إلخ.

المصادر العامة للفكر الإسلامي

ويشمل كتب الفلسفة والفكر العمراني، ومنها التي تمس الجوانب الفلسفية كمؤلفات الفارابي.

والتي تمس الجوانب السياسية: كمؤلف الماوردي، الأحكام السلطانية وابن تيمية وابن قتيبة... إلخ.

والتي تمس بجانب الاجتماع: كمؤلفات ابن خلدون والتي تمس بالجوانب الجغرافية والتاريخية كمؤلفات الحموي والمقدسي والقزويني والمسعودي واليعقوبي...إلخ.

البحث التاريخي

يعتمد على دراسة تاريخية للعمران الإسلامي عمارة وتنظيما وتشريعا، شكلا ومضمونا. وذلك بهدف استيعاب هذا العمران في تحولاته وتقلباته عبر الأزمنة والأمكنة لضبط العناصر المتغيرة مع تغير الزمن والمكان (وهي المتغيرات Eléments variants) وضبط العناصر الدائمة وهى العناصر الثابتة (Eléments permanents).

2ـ المفاهيم الأساسية

1.2ـ صورة الكون

لقد جاءت تصويرا للعالمين[1] المتكاملة والمترابطة في انسجام كامل. عالم السموات والأرض والإنس والجن، والليل والنهار.

بناء كامل سقفه عالم السماء[2]

لقوله تعالى: (والسقف المرفوع الطور:5). (وجعلنا السماء سقفا محفوظا... سورة الأنبياء 32).

السماء المرفوعة

لقوله تعالى : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . . (سورة الرعد 2)

مصدر الإنزال

وهو ما فوق لقوله تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماءاً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . . . سورة إبراهيم 32) .

(والسماء رفعها ووضع الميزان . . . سورة الرحمن 7)

السماء المزينة بالمصابيح[3]

لقوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير . . . سورة الملك 5)

(ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . . . سورة نوح 16/15) .

(والسماء ذات البروج . . . سورة البروج 1)، (الذي جعل في السماء بروجا . . . سورة الفرقان 61) .

وهي البروج المشيدة ونعني هنا أبراج النجوم .

السماء المبنية

لقوله تعالى :(وبنينا فوقكم سبعا شداد . . . سورة النبأ 12)

(والسماء بنيناها بأيد . . . سورة الذاريات47)

(والسماء وما بناها . . . سورة الشمس 5)

كما جاء ذكرها كنية للجامد (السقف)، (فليمدد بسبب إلى السماء) (سورة الحج 15)

وكنية للهواء (السحاب) (وانزل من السماء ماءاً)

وكنية للسائل (المطر)، (يرسل السماء عليكم مدرارا . . . سورة نوح 11)

بناء كامل فراشه الأرض عالم الأراضين

لقوله تعالى : (والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان . سورة الرحمن 10-11) .

وجاءت أوصافها : فراشا، ذلولا، مهادا، بساطا، قرارا[4] .

لقوله تعالى : (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . سورة النمل 61) .

(الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها، وكلوا من رزقه وإليه النشور . سورة الملك 15) . (الذي جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . سورة الزخرف 11) .

لقوله تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطا . سورة نوح 19) (لتسلكوا منها سبلا فجاجا، سورة نوح 20) .

(ألم نجعل الأرض مهادا، سورة النبأ 6) .

وجاءت أصلا للإنسان ومصدرا لنشأته :

(الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءاً وأنزل من السماء ماءاً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا، وانتم تعلمون . سورة البقرة 21ـ 22) .

(والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . سورة نوح 17ـ 18) .

وجاءت كونا لحياة الإنسان وعيشه وسيادته:

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون. سورة الأعراف 10)

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات. سورة الأنعام 165). (وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة..... قال إني أعلم ما لا تعلمون. سورة البقرة 30).

(ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم. سورة الحج 65).

وجاءت صورة لقاعدة لها رواسي وثوابت:

(رواسي شامخات. سورة المرسلات 27).

(والجبال أرساها. سورة النازعات 32). (والجبال أوتادا. سورة النبأ 7).

تشقها البحار والأنهار: (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا. سورة النمل 61).

تتخللها المسالك: (والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا. سورة نوح 19ـ 20)

(الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى. سورة طه 53).

تخرج منها كل أزواج النبات والأحياء وتكسوها الجنان والحدائق:

(أمن خلق السموات والأرض وانزل لكم من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون. سورة النمل 60).

وجاء هذا الكون بناءاً صرحا تنمو فيه وتجول وتحيا عوالم الإنس والجن والأطيار والدواب.

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون... سورة الأنعام 38).

وجاء الكون مجال حركة وسبح وجولان العالمين الشمس والقمر بمثابة ثوابت للزمن والمكان فاقترنا بالمشرقين والمغربين ومعالم الليل والنهار.

(.... وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات، لعلكم بلقاء ربكم توقنون. سورة الرعد 2).

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. سورة النحل 12).

(فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم. سورة الأنعام 96).

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا. سورة الإسراء 12). (أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون. سورة النمل 63).

(وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا. سورة النبأ 10ـ11).

الصورة الإجمالية:

وهكذا يتجلى لنا الكون بناءاً تعلوه السماء وهي سقفه مزينة

بالنجوم والكواكب. مصدر الوحي والماء (الحياة) قاعدته وفراشه الأرض التي تشقها البحار والأنهار وتتخللها المسالك وتشد رواسيها الجبال وتزينها الحدائق تجول وتنشط فيها العوالم الحية من إنس وجن ودواب وأطيار وحيوان.

تضبط الشمس والقمر حركة الزمن والمكان.

ومع الوضع العمودي المكاني (فوق / تحت) الذي تضبطه السماء في الأعلى والأرض في الأدنى.

يتزامن وضع عمودي آخر من حركة الشمس حيث مطلعها مشرقها في الأعلى (فوق) وغروبها أفولها في الأدنى (تحت).

المطلع هنا المصدر ونقطة البداية للنهار، (للمعاش) والمغرب الأفول والدنو والانتهاء (للسكن والقرار)، وترسم حركة الشمس وضعا آخر أفقيا (قبل /دبر) (أمام/ وراء)، حيث يكون المطلع والإشراق المصدر/ البداية/ المشرق (أمام/ قبل) بينما المغرب والدنو والأفول والتأخر والنهاية يأتي (وراء/ ودبر/ خلف).

من هذه الضوابط يتحدد اليمين (وأصله الجارحة كما جاء عند الراغب الأصفهاني واستعير اليمن للتيمن والسعادة. (ص 577).

وقابل اليمين من الجهة المعاكسة الشمال. وقد يقترن الشمال بالشقاء في أغلب الصور القرآنية: (أصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم... سورة الواقعة 41-42) وهكذا تزامن الحركة المكانية حركة زمانية.

فجاء مطلع الشمس ومشرقها بداية للنهار ومغربها آخره مع ضوابط بينية وجاء عكسا مغرب الشمس مطلعا لليل وآخر الليل مطلعا للنهار.

(تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب. سورة آل عمران 27).

(ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعلمون خبير. سورة لقمان 29).

(خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا وهو العزيز الغفار. سورة الزمر5).

فترسم الشمس في حركتها الضوابط المكانية والزمنية وذلك حسب محورين يشكلان حركة دائرية في الفضاء لحركة الشروق والغروب عموديا (فوق/ تحت) من أعلى إلى أسفل وأفقيا (أمام/ وراء) من القبل إلى الخلف.

رافقت هذه الحركات والضوابط الزمنية والمكانية صور ورموز تثري التصور والإدراك الإنساني للأشياء، نطرحها في شكل مفاهيم.

2.2ـ الكون: تصور ومفاهيم.

التصور الشمولي

يتجلى لنا الكون من خلال التصور القرآني كيانا معقدا تترابط أجزاءه وتتداخل وتتفاعل وبتفاعلها يتحقق انسجام الكيان كمنظومة شاملة يتحقق انسجامها بتداخل وتفاعل مكوناتها. ويستدعي هذا التصور الشمولي اعتبار الكون منظومة في كلياته وتفاصيله كلا

متظامنا ومتفاعلا غير قابل للتجزءة. وفصل جزء عن الكل يؤدي إلى عرقلة الانسجام وتوقف حركة المنظومة، وذلك عكس الهياكل المستقلة الأجزاء. ويتحقق الانسجام للكل من تكامل الأقران أما المتشابهة أو المضادة ومن تكامل الجوهر والعرض والمدة والصورة.

نستدل على صورة التكامل الإنسجامي بالإستعمال القرآني لمصطلح الزوج: (والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك و الأنعام ما تركبون. سورة الزخرف 12).

(سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. سورة يس 36).

وفي تفسير الزوج ورد عن الراغب الأسفهاني ص 220.

أنه « يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات، المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج ». ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا زوج.....

(سبحان الذي خلق الأزواج كلها. سورة يس 36)، (ومن كل شيء خلقنا زوجين. سورة الذاريات 49).

فتنبيه أن الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض ومادة وصورة.....

فتبين أن كل ما في العالم زوج من حيث أن له ضدا أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب وإنما ذكر هنا زوجين تنبيها أن الشيء وإن لم يكن له ضد أو مثل فإنه لا ينفك من تركيب جوهر وعرض.

ومن المثيلة قوله تعالى:

(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج ...سورة الزمر 6).

ومن المضادة :

السماء والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار.....

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء... سورة البقرة 164).

(إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون... سورة آل عمران 190).

ومن التركيب :

الجوهر والعرض، المادة والصورة، (خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من النار فبأي آلاء ربكما تكذبان. سورة الرحمن 14-15-16) (والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. سورة نوح 17ـ 18). (الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك. سورة الإنفطار 6ـ7).

علاوة على علاقة التكامل بين الأزواج لتحقيق الانسجام الكلى للكون ما يدل على تداخلها.

(ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعلمون خبير. سورة لقمان 28).

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون... سورة يس 40).

التصور الروحي

ومن المفاهيم التي نستنبطها من الخلق والكون في القرآن.

هو تكامل وتداخل المادة والروح، الجوهر والصورة.

وهذا لا يخص الأحياء فقط بل يشمل كل ما خلقه الله في الكون.

لقوله تعالى:

(تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا... سورة الاسراء 44).

(ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قدم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون... سورة النور 41).

(إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب... سورة ص 18ـ19).

وهذا التصور يعطي بعدا لمفهوم الشيء وهو بعد روحي.

فقد شمل التسبيح كل ما في الكون على الاطلاق كما ورد في الآية.

وجاء لتأكيد مصطلح الشيء (وإن من شيء ألا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم... سورة الإسراء 44).

فيسمو التصور القرآني بالشيء، أي الجماد الذي لا يتعدى عند أدرك الإنسان (الضعيف إدراكه، تركيب مادي محض إلى رقي الروح. لقوله تعالى: لا تفقهون تسبيحهم).

وهذا المفهوم يصبح من المفاهيم الجوهرية للتصور الإسلامي للكون والمخلوقات والأشياء التي تختلف جوهريا مع الفلسفة والتصورات البشرية العالمية. (المادية).

فحركة التسبيح تعطي للشيء بعدا روحيا يسمو به ويرقى ليتجرد من صورته المادية. ويتطلب من هذا الاعتبار احترام حرمة الشيء، وهي حدوده وحقوقه.

ويكون هذا المفهوم هو أساس فكرة أو مفهوم الحرمة في العمران الإسلامي. وقد يذهب حديث الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المجرى في قوله:

عن الطرقات ..... (إياكم والجلوس في الطرقات ..... قال فإن أبيتم فأعطوا الطريق حقه، قالوا وما حقه؟ قال: ..... فاستعمال مصطلح الحق هنا، دليل صادق على أن للشيء حق وحرمة. وللمكان حق وحرمة تصان ولا تمحق.

وقد نلمس في مثال المصلي الذي يضع حدا رمزيا لمكان صلاته، كحجر في الأرض مثلا رمزا لاعتبار واحترام حدود وحرمة المكان.

وقد تكون معالجة الفقهاء للحدود في فقه العمارة والبنيان والتي تسمى بالحريم امتدادا شكليا لهذا المفهوم.

التصور الحركي

علاوة على التصورات السابقة يتجلى الكون بمخلوقاته وكائناته غير هامد بل هو في حركة مستمرة ودائمة والحركة تأتي شرطا وضرورة لتحقيق انسجام الكل. كما هو الحال بالنسبة لعلاقة التكامل والتداخل والتفاعل بين الأجزاء وهي علاقات حركية.

(الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءاً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار.. سورة ابراهيم 32-33). (يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار... سورة النور 44).

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون . . . سورة يس 40) .

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب . . . سورة النمل 88) .

البعد الزمني والمكاني للكون

يتجلى الكون بمخلوقاته وكائناته نقطة لقاء للزمن وللمكان الفان . (الخيالي) بالمقابل مع الزمن الخالد والمكان الخالد، حياة الآخرة والدار الآخرة وهو الزمن والمكان الحقيقيين وتجريد الصورة المادية والظاهرية رمزا للفناء وللخيال كي تسمو الحقيقة وهي الخلود في الزمن والمكان الحقيقي . (الآخرة) .

وقد وردت تلك الحدود الزمنية للكون في ثلاث مصطلحات أساسية تكرر استعمالها في القرآن وهي أجل مسمى / إلى حين، الفناء . . . .

(فاصبر إن وعد الله حق . . . سورة غافر55) .

(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون . . . سورة يس 83) .

(له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . سورة الحديد 5) .

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . سورة الأعراف 24) . (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأي آلاء ربكما تكذبان . . . سورة الرحمن 26-27-28) . (والآخرة خير وأبقى) . (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

كما ورد المفهوم كذلك في سور لفناء الدنيا والكون تعددت في القرآن الكريم .

(فإذا انشقت السماء، فكانت وردة كالدهان فبأي آلاء ربكما تكذبان فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان . . . . سورة الرحمن 37-38-39-40) .

(إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباءاً منبثاً . سورة الواقعة 6/1) .

الكون : آية من آيات الله

ويأخذ الكون والمخلوقات معنى حسب ما ورد في كثير من الآيات وهو آية من آيات الله صورة وبرهان على قوة الله وقدرته وعظمته . فجاء بذلك في معنى الرمز والدليل على عظمة الله . وجاء تصور الكون بهذا المعنى كما ورد في سورة الرحمن حيث تكررت عبارة استفهامية لإثارة الانتباه وللتذكير والاعتبار . وهي التي تلت كل آية من السورة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) كما ورد المعنى في مصطلح مباشر وهو التذكرة .

كقوله تعالى : (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم . . . سورة الواقعة 73-74) .

(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . سورة نوح 15) .

كما ورد المعنى في مصطلح مباشر وهو آية .

كقوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير... سورة الشورى 29).

وجاء المعنى بأدوات استفهامية متنوعة.

أمن. (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءا... سورة النمل 60).

أولم يتفكروا. (أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى... سورة الروم 8).

ولئن سألتهم. (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. سورة لقمان 25).

وقد جاء كذلك هذا المعنى في صيغ تنتهي بها آيات الخلق والكون وكلها تدل على آيات الله والاعتبار بها:

كقوله تعالى: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين...سورة الروم 22).

وردت هذه الآيات بصيغ متشابهة كقوله تعالى: «لآيات لقوم يعقلون. أفلا يعقلون... لآيات لقوم يوقنون...» وهكذا يتجرد الكون كذلك من الصورة المادية القريبة ليسموا تعبيرا عن عظمة الله وهي الحق المطلق.

الكون والوجود

وقد ورد الكون والخلق كظرف وشرط للوجود وليس غاية في ذاته فجاء ظرفا للوجود الذي تكمن ماهيته وسره وغايته في امتحان الخلق وهو الحق عينه (وفي هذا معلم تجريدي يجرد الكون من صورته القريبة لتتجلى الغاية منه وهي الحق).

كقوله تعالى (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور. سورة الملك 2).

(خلق السماوات والأرض بالحق ... سورة الزمر 5).

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. سورة الأنبياء 16).

(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون... سورة الدخان 38-39).

أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون.... سورة المؤمنون 115).

(وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون... سورة الجاثية 22).

الكون منفعة للإنسان

مفهوم الانتفاع مفهوم جوهري ويختلف أساسا مع مفهوم الاستهلاك الذي يتداوله الفكر المادي. وقد ورد الكون في معنى المنفعة للإنسان، في تعبير مباشر وواضح وهو المتاع.

كقوله تعالى:(نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين. سورة الواقعة 73).

(ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين... سورة الأعراف 24).

ورد المعنى في خطاب مباشر وواضح:

كقوله تعالى: (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءا فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار... سورة إبراهيم 32-33).

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها . . سورة النحل14) .

كما ورد كذلك بتكرار كلمة سخر، والتسخير هو التدليل والتبسيط . (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . . . سورة الجاثية 12) .

(ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . . . سورة النمل 86) .

(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . . . سورة الملك 15) .

ولم يأت الانتفاع بالكون غاية بذاته كما هو الحال كذلك بالنسبة للكون بل شرط أو ظرف وسبيل لتحقيق الغاية وهي أداء الإنسان رسالته في هذا الكون .

وإذا زالت الغاية زال معنى الشرط .

فلم يرد الانتفاع مطلقا بل هو محدود في الزمن كما ارتبط ارتباطا وثيقا بالغاية وهي تحقيق الرسالة وبضوابط الشرع وهي ضوابط الخالق والمالك للكون، فجاءت أوامر الله ونواهيه هي ضوابط هذا الانتفاع وهذا المفهوم يحرر الإنسان في علاقته بالكون، بالمخلوقات والكائنات من كل قيود وضوابط بشرية بانضباطه بالتساوي بين جميع الناس بأوامر ونواهي الخالق والمالك للكون، الله تعالى .

وهذا ما نستنبطه مما ورد في القرآن الكريم في هذا الشأن .

فاستتبعت كلمة المتاع بالتذكرة (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . سورة الواقعة 73) .

واستتبعت كلمة المتاع بالأجل المسمى الذي يحده زمنيا . كقوله تعالى (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . . . سورة الأعراف 24) .

(وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . . . سورة الملك 15) .

كما انتهت غالبا آيات تسخير الكون بأدوات للتذكير بالغاية من ذلك (لعلكم تشكرون)- (لقوم يؤمنون)- (يتفكرون - يعقلون - يوقنون) .

وهذا المفهوم يختلف جوهريا مع مفهوم الاستهلاك في الفلسفات المادية الذي يتجرد من كل بعد روحي فيكون بذلك سبيلا لتغطية الحاجات التي يمليها قانون الطبيعة، خلافا لمفهوم الانتفاع في الإسلام والذي تمليه شريعة الله في شكل حقوق وواجبات ليس فقط نحو الله ولكن نحو الكون والمخلوقات كلها، منها الحية كالحيوان مثلا والجامدة على نحو ما يذهب إليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم (« إياكم والجلوس في الطرقات . . . قال فإن أبيتم فأعطوا الطريق حقه . . .) .

وتسمو الحاجات المادية ببعد روحي، لينقلب مثلا إشباع رغبة الأكل والترفيه . . .إلى حقوق نحو النفس لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لنفسك عليك حق »)

وقد يكون الاستهلاك في بعض معانيه (حسب الفكر المادي) غاية بذاتها وذلك ما تذهب إليه الفلسفة الليبرالية في تحديد مفهوم الحرية وهي تعنى أساسا حرية التملك وهذا ما يتولد عنه السباق على الرهانات المادية في العالم وفي الأطر المحلية والتي تنعكس عنها كل التناقضات التي تعاني منها الطبقات الاجتماعية وكذلك التفاوت بينها .

أما في الإسلام فالإنسان حر في انتفاعه بالكون في حدود أوامر ونواهي الخالق وهذه الوسطية تحددها السنة النبوية في حديثه صلى الله عليه وسلم والتي هي من أسس التشريع: «لا ضرر ولا ضرار» والاختلاف الجوهري يكمن بين مبدأ السيادة لله والحكم للإنسان في الأرض (الإسلامي) والسيادة المطلقة للإنسان (الفكر المادي) ويرتبط مفهوم الانتفاع إذا بشكل وثيق بمفهوم الاستخلاف (الإسلامي).

مفهوم الاستخلاف

حسب هذا المفهوم يأتي وجود الإنسان وخلقه وتصوره مرتبطا بالغاية من الوجود وهي امتحان الله للإنسان في خضم صراع الحق والباطل والخير والشر.

كما ترتبط كل ظروف وشروط تحقيق الغاية وهي خلق الكون وشرعية الإنتفاع بهذا الكون بالغاية ذاتها. وقد ميز الله سبحانه وتعالى الإنسان على سائر المخلوقات والكائنات، باستخلافهم في الأرض.

لقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيه ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون ... سورة البقرة 30).

وفي تفسير العلماء لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، جاء فيه:

(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ..... إلا وحفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده،)

فقال العلماء أن ذكر الله لهم يأتي تذكيره تعالى بقوله إني أعلم مالا تعلمون.

وكقوله تعالى:

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ... سورة الأنعام 165) (ولقد مكانكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون. سورة الأعراف 10)

وهذا التكريم الذي خص الله به الإنسان باستخلافه في الأرض يأتي سبيلا لتحقيق الغاية من الوجود.

فيأتي الاستخلاف وثيق الصلة والارتباط بالغاية وهي حمل الأمانة الكبرى المقدسة وأداء الرسالة كما جاء في قوله تعالى:

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا. سورة الأحزاب 72)

والغاية إذا هي التي تبرر الوسيلة والسبيل وتعطيه الشرعية. فيأتي إذا وجود الإنسان واستخلافه في الأرض وثيق الصلة بالغاية من وجوده ويفقد الوجود معناه ويفقد الاستخلاف شرعيته مع غياب الغاية فلا معنى لوجود الإنسان ولا شرعية لحكمه في الأرض دون إقرار السيادة لله (الخالق، المصور، المالك، الذي إليه الرجوع) وإقرار السيادة لله يكون بالانضباط في كل حركة وسكون بأوامره ونواهيه.

فيأتي هذا المفهوم أساسا وركيزة لضبط وبناء الإنسان لعلاقته مع الله ومع الكون ومع سائر المخلوقات الآدمية والحيوانية وجميع ما خلق لله في هذا الكون حيا كان أم جمادا كما يعتمد على هذا المفهوم أساسا لتصور المشروع الاجتماعي و .... أي الحضاري ككل ويعتمد عليه كذلك أساسا للتشريعات.

3.2 علاقة الإنسان بالكون

طبعا يعني هذا الموضوع كثيرا، لكننا سوف نقتصر على بعض المفاهيم الأساسية التي ترتبط بعمران الإنسان كوجه من أوجه علاقته بالكون.

وتقتصر هذه المفاهيم على مفهوم التعمير والعمارة والعمران، وعلى مفهوم التمدين، وعلى مفهوم السكن.

مفهوم التعمير والعمارة والعمران

العمارة كما ورد عند (الراغب الأسفهاني ص 359)، هي نقيض الخراب ويقال عمر أرضه يعمرها.

كما ورد في القرآن الكريم (وعمارة المسجد الحرام... سورة التوبة 19).

(وعمروها أكثر مما عمروها... سورة الروم 9)، (والبيت المعمور... سورة الطور 4)

والعُمر والعَمرُ اسم لمدة عمارة البدن في الحياة (نفس المرجع)

والتعمير إعطاء العمر بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء لقوله تعالى: (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه... سورة فاطر 37).

(حتى طال عليهم العمر ... سورة الأنبياء 44). (ومن نعمره ننكسه في الخلق... سورة يس 68). والاعتماد والعمرة هي الزيارة التي فيها عمارة الود. (نفس المرجع).

وفي تفسير قوله تعالى (إنما يعمر مساجد الله... سورة التوبة 18)، يقول الراغب الأصفهاني «أما من العمارة التي هي حفظ البناء أو من العمرة التي هي الزيارة، أي عمارة الود.

وقد تدل العمارة على الإقامة كقولهم: عمرت..... أي أقمت ب.....وقد تعني العمارة الجماعة التي بها عمارة المكان.

وقد تعني كذلك السكان.

وقد وردت كذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى (على الأرض) (واستعمركم فيها... سورة هود 61). (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين... سورة الشعراء 183).

وقد ورد عن الأصفهاني:

«أعمرته واستعمرته إذا فوضت له العمارة» (ص359). وجاءت في صفة الاستفعال وهي تعني التكليف كما جاء الاستخلاف يعني تكليف الله الإنسان بتحمل أمانة الأرض وهي الخلافة فيها.

جاء كذلك الاستعمار تكليف الله الإنسان بتعمير الأرض وجاءت في آية أخرى في نهي عن الفساد في الأرض وهو نقيض العمارة.

فيأتي تعمير الأرض وجها من أوجه الرسالة التي كلف والله الإنسان بأدائها، في صيغة الفرض والمفروضات كما أن الفساد جاء في صيغة النواهي والمنكرات.

وهذا هو البعد الروحي الذي يغطي كل حركة تعميرية مادية في ظاهرها.

والعمارة كما سبق لا تنحصر في البناء المادي فقط بل كل ما من شأنه صلاح البناء والزراعة والاقتصاد والاجتماع وتشمل عموما كذلك صلاح النفوس والعواطف على غرار زيارة الود التي سميت عمرة وعمارة.

مفهوم المدينة والتمدين

اشتقت مدينة من أصل « دين »

وقد وردت كلمة دين بصورة متعددة في القرآن، فجاءت دالة على :

على التوحيد (فاعبد الله مخلصا له الدين . . . سورة الزمر 2) .

على الحساب (الذين يكذبون بيوم الدين . . . سورة المطففين 83) .

على الحكم (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك . . . سورة يوسف 76) .

(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . . . .سورة النور 2) .

على الدين (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق . . . سورة التوبة 33) .

على الملة (الجماعة) (وذلك دين القيمة . سورة البيّنة 5)

وقد ذكرت المدينة 17 مرة في القرآن وقد أطلقت الكلمة على مواضعٍ بها حكام وملوك، فارتبطت أساسا بميزة السلطة والنظام. وقد نكتفي بثلاثة أوجه لدلالتها، حيث دلت على الملة وعلى الحكم وعلى الدين لندرك محتوى دلالة الدال على المدلول والذي تجتمع فيه صور وخصائص مشتركة بين الدال والمدلول.

فجاءت بذلك المدينة دالة على الاجتماع الملة وعلى النظام والحكم وعلى الدين (ثقافة، فكر وروح)، حيث لا يتم عمران بدون اجتماع ولا اجتماع بدون عدل.

وتمثلت صورتها نقطة لقاء للإنسان والزمن والمكان.

وارتبط معنى المدينة بالاجتماع والعدل وهي أسس العمران الذي يشكل في التصور الإسلامي جزءا من رسالة الإنسان في الأرض ووجها من أوجه العمارة وفي ذلكم بعد روحي لكل حركة وفعل ظاهره مادي.

ولا يعني العمران والعمارة، كما سبق البناء والتشييد المادي فقط وإنما كذلك إصلاح وعمارة الاجتماع (بالتعاون على البر والتقوى وإفشاء السلام ونشر العدل وتوطيد الأمن)، رعاية البيئة حرثا وزرعا ونباتا وماء وهواء وإصلاح وعمارة النفوس بعمارة الود وإصلاح العواطف والنفوس. فجاءت المدينة بمعنى الاجتماع والعدل وهي الاجتماع الفاضل أي عمرانا غاية مرحلية للإنسان بها تتحقق الغاية الكبرى وهي عبادة الله.

وجاءت كذلك مهمة ضمن الأمانة والرسالة التي كلف الله بها الإنسان (ولنستعمركم فيها).

ونحو ذلك جاءت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتعاليمه التي تحث على التعمير والاجتماع والعدل وذلك بإبراز فضلها وجزاء الله عنها.

والمدينة في ارتباطها بمدلولها أي الاجتماع والعدل، تجعل الدال والمدلول يشتركان في كثير من أوجه الدلالة.

وكما أن للجماعة ميزة خاصة في الإسلام إذ أن الالتفاف بالجماعة وتوطيد أواصر الجماعة والتضامن مع الجماعة كلها غايات يحث الإسلام عليها لما فيها من فضل في عبادة الله، فكذلك المدينة تستفيد في التصور الإسلامي من ميزة خاصة ففيها من الفضل ما للجماعة من فضل.

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا. سورة آل عمران 103)

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. سورة المائدة 2)

(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . . . سورة الرحمن 9)

(وإن احكم بينهم بما أنزل الله . . . سورة المائدة 48)

وإذ يكون الاجتماع غاية مرحلية أي سبيل المدنية وذلك لتحقيق الغاية الكبرى وهي رسالة الإنسان في الأرض عبادة الله .

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . . . سورة الذاريات 56)

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وألئك هم المفلحون . . . سورة آل عمران 104 .)

يكون الغرض من تحفيز الإسلام وتشجيعه للاجتماع والتعمير (كسبل) هو أداء الرسالة أي العبادة .

ولذلك جاء حديث والرسول صلى الله عليه وسلم : « لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع . »

وكذلك ذهبت فتاوى العلماء في صلاحية المكان للجمعة، كفتوى أبي حنيفة أن « صلاة الجمعة إنما تختص بها الأمصار دون غيرها وان لا يجوز إقامتها في القرى اعتبارا للمصر إنه ذلك المكان الذي يوجد به سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام »[6]

وكذلك ذهبت النظريات الأساسية في الفكر العمراني الإسلامي، كمنظور ابن خلدون : « فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير . . . وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون . . . فلا بد من تمصير واختطاط المدن من طرف الدولة والملك »[7]

وكقول الفارابي : « الإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن يتم الضروري من أمورها ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا باجتماع جماعات منها كثيرة في مسكن واحد والجماعات الإنسانية منها عظمى ومنها وسطى ومنها صغرى . والجماعة العظمى هي جماعة أمم كثيرة تجتمع وتتعاون والوسطى هي الأمة والصغرى التي تحوزها

المدينة وهذه الثلاثة هي الجماعات الكاملة فالمدينة هي أول مراتب الكمالات »[8]

صورة المدينة

تستعير المدينة وفق هذا التصور الإسلامي أكثر صورها من مدلولها وهي الجماعة والأمة والمجموعة الإنسانية .

البنية المتداخلة (La structure d'emboitement)

فتشكيلها يتم بالتكاثر في هيكل اندماجي على غرار تشكيل الجماعة من قوله تعالى : (إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . . سورة الحجرات 13)

تبدأ الجماعة بالزوج الذي يتكاثر لتتشكل منه تدريجيا جماعات (شعوب وقبائل) لتحقيق الغاية من ذلك وهو التعارف (الاجتماع) . أي بمعنى الاجتماع الفاضل .

فكذلك المدينة التي تبدأ بالمسكن وبمجموعة المساكن تتكون الخطة وبمجموع الخطط تتكون المدينة في صورة اندماجية الواحدة تحتوي على الأخرى وهلما جرا، في انسجام بين الوحدة والكل وكما أن التكاثر للجماعة يهدف إلى غاية التعارف والاجتماع، فكذلك الغاية من تكاثر المدينة وبقدر ما يكون عطاء الفرد تتحقق درجة التعارف (أي الاجتماع الفاضل) فكذلك المدينة بقدر ما يكون عطاء خلاياها المبنية أي بقدر انسجامها، بقدر ما تتحقق فيها درجة التعارف .

وكما أن التعارف يتجسد في روابط الجماعة فكذلك المدينة لا يتجسد التعارف فيها إلا في روابط أجزائها وخلاياها التي تتشكل

منها الفضاءات الجماعية وبقدر ما تكون المدينة من تحقيق الغاية وكذلك الجماعة بقدر ما تتحقق فيها درجة التعارف.

الهيئة العضوية (La structure organique)

أما عن نوعية الروابط فتتجلى لنا في بنية عضوية لقوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»

ومحتوى الدلالة بين الدال (الجسد) والمدلول (جماعة المؤمنين) هو الاشتراك في تركيب واحد عضوي يتفاعل أعضاءه في علاقة تكاملية لتحقيق انسجام الكل الغير قابل للتجزئة وكل تأثير أو فعل على الجزء ينعكس على الكل.

التركيبة المتشابكة (La structure imbriquee)

ونوعية تلك الروابط تتجلى لنا من قوله صلى الله عليه وسلم: «المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» حيث يكون الدال هو البنيان المرصوص على المدلول (الجماعة المسلمة) ومحتوى الدلالة يكمن في الاشتراك في صورة البنية أو الهيكل المتراكب، والمتشابك، والمتداخل. وكل هذه الصور إنما هي تجسيد للتصور القرآني لمفهوم الرابطة الجماعية للمؤمنين لقوله تعالى:

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم... سورة التوبة 71)

مع التذكير بالغاية من الاجتماع والتعمير وهو طاعة الله وعبادة الله. التي تبقى غاية ومحور الاجتماع والعمران وهي الحق المطلق.

مفهوم السكن

السكن كما ورد عند (الراغب الأصفهاني ص: 242) هو السكون أي ثبوت الشيء بعد تحرك ويستعمل في الاستيطان نحو سكن فلان مكان كذا... أي استوطنه.

وقد وردت في القرآن معاني ودلالات كثيرة، فسرها الدمغاني على أنها مرادف للقرار كقوله تعالى: (جعل الليل سكنا... سورة الأنعام 96)

وجاءت بمعنى الطمأنينة كما جاء عند الراغب الأصفهاني، وقيل السكينة والسكن واحد وهو زوال الرعب نحو قوله تعالى: (إن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم... سورة البقرة 148).

وقوله تعالى: (أنزل السكينة في قلوب المؤمنين... سورة الفتح 4).

وجاء في تفسير السكينة استعمال مجازي وهي تعني ملكا يسكن قلب المؤمن ويؤمنه.

وجاءت في معنى الاستئناس والطمأنينة، كقوله تعالى: (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها. سورة الروم 21)

وجاءت كلمة سكن تعني السكون والطمأنينة والاستئناس كغاية في ذاتها.

كقوله تعالى: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها... سورة الأعراف 189).

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لأيات لقوم يتفكرون... سورة الروم 21)

فجاءت بذلك غاية من ارتباط الأزواج، (لتسكنوا إليها) فتتحقق تلك الطمأنينة (السكن) بالمودة والرحمة .

كما جاءت كذلك سبيلا، ظرفا أو شرطا لتحقيق السكن أي هي معنى ما يسكن فيه وإليه وبه .

نحو قوله تعالى : (فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم... سورة الأنعام 96)

فجاء الليل بذلك ظرفا وشرطا زمنيا لتحقيق السكن (القرار والطمأنينة) .

(ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون... سورة النمل 86)

كما جاء البيت ظرفا وشرطا مكانيا لتحقيق السكن (القرار والطمأنينة) (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين... سورة النحل 80)

وفي دلالة السكن على البيت تتجلى البيت (كإطار مبنى) ظرفا لتحقيق السكينة والطمأنينة والقرار . وبانعدام الغاية وهي الطمأنينة والقرار أي السكن تسقط الدلالة، (لا ترى إلا مساكنهم) .

وكذلك جعل الله الأرض ظرفا مكانيا لتحقيق السكن المدلول بدلالة القرار .

(أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا... سورة النمل 60) .

وقد جاءت هذه الآية باستعمال القرار كدال على السكن ويقابله تصور الأرض كظرف مكاني للمعاش .

لقوله تعالى : (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإلي النشور... سورة الملك 15) .

ويقابل الظرف المكاني البيت ثم الأرض لتحقيق السكن، ظرف زمني وهو الليل الذي ورد باستعمال مباشر . (وجاعل الليل سكنا... سورة الأنعام 96) .

وورد مجازيا باستعمال لفظ اللباس كدال على السكن وهو المدلول ويغطي معنى الدلالة صورة الاحتواء والتي بها يتوفر القرار . فكما يحتوي اللباس كإطار مادي جسما، فيشمله ويغطيه أي يسكنه، فكذلك الإطار (سواء كان زمنيا أو ماديا أوهيكليا) الذي يحوي ويغشى النفوس لتستقر وتطمئن، (وجعلنا الليل لباسا... سورة النبأ 10) .

وبهذا التعبير جاء كذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله.... إلا ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة..... » وهنا جاءت الغشاوة (الإغشاء) في معنى الاحتواء .

كما يقابل الظرف المكاني، الأرض لتحقيق المعاش والحركة، ظرف زمني وهو النهار . لقوله تعالى : (وجعلنا النهار معاشا... سورة النبأ 11) .

فجاء السكن غاية روحية تعنى القرار النفسي والطمأنينة، وجاء في صور مادية كناية ودلالة على ظروفها المادية المكانية والزمنية.

البيت / السكن.... الأرض / القرار(السكن).

الليل / السكن..... الليل / اللباس(السكن).

وجاءت في صور مادية مجازية كناية ودلالة على فعلها وهو الاحتواء والإغشاء والشمل للجسد والنفس أي للمادة والروح.

الليل / اللباس (السكن)

وانطلاقا من هذا المفهوم تتجلى الفروق الجوهرية بين التصور الإسلامي للسكن وهو سبيل لتحقيق الغاية منه وهي الطمأنينة والقرار النفسي. وبانعدام الغاية يفقد الظرف أو الشرط معناه وبين التصور المادي للسكن الذي يراه سبيلا أو ظرفا لإعادة إنتاج قوة العمل على غرار التصور المادي للإنسان وتتجلى انعكاسات هذه التصورات في بلورة أشكال المساكن ونوعيتها.

ومحدودية التصور المادي للبيت تتجلى انعكاساتها في التأثيرات السلبية للأشكال والفراغات على الإنسان الحديث، ساعد ذلك على التأطير الرأسمالي للحياة والتي تدعو إلى الاستهلاك الكثيف مما جعل الإنسان الحديث يستهلك الفراغات الخارجية يلبي أغلب الوظائف خارج مسكنه كالمطاعم والحانات ودور اللعب الخ... لما يعانيه من اختناق وضيق نفسي في البيت.

بينما الاعتماد على المفهوم الإسلامي للسكن في بلورة الأشكال وتنظيم الفراغات يقتضى مراعاة كل الشروط المادية كتوفير (النور، الهواء، الفضاء والراحة) والاطمئنان حتى يبلغ المسكن غايته. كما

يقتضي مراعاة متطلبات الإنسان (الساكن) في بلورة الأشكال حتى يتحقق تقريب الشكل من الإنسان لما للشكل والفراغ من قدرة على إثارة إحساسات نفسية لدى الإنسان ولما للإنسان من قدرة وحاجة في التجاوب مع الفراغ والشكل بمثابة لباس مادي للنفس.

وهذا التجاوب يتم عبر رموز تترجم الأشكال إلى معاني يدركها الإنسان في حركة مستمرة تتكرر فيها الصور وتنمو وتتبلور.

هوامش الفصل الثالث

1- والعلم للفلك لما يحويه من الجواهر والأعراض، وأما جمعه فلأن كل نوع من هذا قد يسمى عالما، فيقال عالم الإنسان وعالم الماء وعالم النار...

وقيل إنما جمع هذه لأنه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس دون غيرهما وهذا ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه.

الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص 357، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، 1972.

2- وقد جاء عند الراغب الأصفهاني ص 254، سماء كل شيء أعلاه، والسماء المقابل للأرض.

3- الدمغاني: قاموس القرآن، م، سابق.

4- وجاء عند الراغب الأصفهاني في كلمة بساط والبساط الأرض المتسعة، واستعار القوم البسط لكل شيء لا يتصور له تركيب وتأليف ونظم (ص43)، وقال في الفراش أي دللها ولم يجعلها نائية لا يمكن الاستقرار عليها، والفرش بسط الثياب (ص 399).

وفي القرار قال: يقر قرارا إذا ثبت ثبوتا جامدا وأصله من القر وهو البرد ويقتضي السكون والحر يقتضي الحركة، وفي جعل لكم الأرض قرارا أي مستقرا. (ص 412)، والمهد والسماء المكان الممهد الموطأ، (ص 495).

5- الدامغاني: قاموس القرآن.

6- عثمان (محمد عبد الستار): المدينة الإسلامية، ص 20، عالم المعرفة 128، الكويت.

7- ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الأول، ص 609، الطبعة الثانية، بيروت، 1967.

8- الفارابي (أبو نصر): السياسة المدنية، تحقيق فوزي م.نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964.

مراجع الموضوع للفصل الثالث

1- الراغب الأصفهاني: معجم مفردات القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972.

2- الدمغاني: قاموس القرآن، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، 1980.

3- ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الأول، الطبعة الثانية، بيروت، 1967.

4-الفارابي (أبو نصر): السياسة المدنية، تحقيق فوزي.م.نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964.

5-عثمان (محمد عبد الستار): المدينة الإسلامية، عالم المعرفة 128، الكويت، آب 1988.

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم السورة	رقم الصفحة في الكتاب
13	سورة الحجرات	49	56/81/112/126
70	سورة الإسراء	17	58/82
10	سورة الأعراف	7	59/175
72	سورة الأحزاب	33	59/175
1	سورة الفرقان	25	59/83
56	سورة الذاريات	51	79/81/110/126/180
24	سورة الملك	67	79/81
19	سورة الحجر	15	79
104	سورة آل عمران	3	127/79/81/112/180
70	سورة التوبة	9	80
115	سورة المؤمنون	23	81/171
110	سورة آل عمران	3	81
2	سورة المائدة	5	82/127/179
30	سورة البقرة	2	83/126/160/174
48	سورة المائدة	5	83
49	سورة المائدة	5	83
39	سورة النجم	53	110
1	سورة النساء	1	111
189	سورة الأعراف	7	111/183
1	سورة التغابن	64	112
44	سورة الإسراء	17	113/166
41	سورة النّور	24	113
3	سورة التغابن	64	113
64	سورة غافر	40	114/126
105	سورة الأنبياء	21	126
83	سورة القصص	28	126
22	سورة محمد	47	126
24	سورة الأعراف	7	127
39	سورة النجم	53	127
26	سورة الرعد	13	127
4	سورة الرّوم	30	127
5	سورة الطور	52	157
32	سورة الأنبياء	21	157
2	سورة الرعد	13	158
32	سورة إبراهيم	14	158/167/171

7	سورة الرحمن	55	158
5	سورة الملك	67	158
15 et 16	سورة نوح	71	158
1	سورة البروج	85	158
61	سورة الفرقان	25	158
12	سورة النبأ	78	158
47	سورة الذاريات	51	158
5	سورة الشمس	91	158
15	سورة الحج	22	159
21/22	سورة البقرة	2	159
11	سورة نوح	71	159
10 et 11	سورة الرحمن	55	159
61	سورة النّمل	27	159/160
15	سورة الملك	67	159/172/173/185
11	سورة الزخرف	43	159
21 et 22	سورة البقرة	2	159
17 et 20	سورة نوح	71	159
10	سورة الأعراف	7	160
6	سورة النبأ	78	159
165	سورة الأنعام	6	160/175
65	سورة الحج	22	160
27	سورة المرسلات	77	160
32	سورة النازعات	79	160
7	سورة النبأ	7	160
19 et 20	سورة نوح	71	160
53	سورة طه	20	160
60	سورة النّمل	27	160
38	سورة الأنعام	6	161
2	سورة الرعد	13	161
12	سورة النحل	16	161
96	سورة الأنعام	6	161/183/184
12	سورة الإسراء	17	161
63	سورة النّمل	27	161
10 et 11	سورة النبأ	78	161
41 et 42	سورة الواقعة	56	162
27	سورة آل عمران	3	163
29	سورة لقمان	31	163

5	سورة الزمر	39	163
12	سورة الزخرف	43	164
36	سورة يس	36	164
49	سورة الذاريات	51	164
6	سورة الزمر	39	164
164	سورة البقرة	2	165
190	سورة آل عمران	7	165
17 et 18	سورة نوح	71	165
6 et 7	سورة الإنفطار	82	165
28	سورة لقمان	31	165
40	سورة يس	36	165/168
14 et 16	سورة الرحمن	55	165
41	سورة النّور	24	166
18	سورة ص	38	166
32 et 33	سورة إبراهيم	14	167
44	سورة النّور	24	167
88	سورة النّمل	27	168
55	سورة غافر	40	168
83	سورة يس	36	168
5	سورة الحديد	57	168
26;28;37 et 40	سورة الرحمن	55	168
1 et 6	سورة الواقعة	56	169
73 et 74	سورة الواقعة	56	169
15	سورة نوح	71	169
29	سورة الشورى	42	170
60	سورة النّمل	27	170
8 et 22	سورة الرّوم	30	170
25	سورة لقمان	31	170
2	سورة الملك	67	171
5	سورة الزمر	39	171
16	سورة الأنبياء	21	171
38 et 39	سورة الدّخان	44	171
22	سورة الجاثية	45	171
73	سورة الواقعة	56	171/173
24	سورة الأعراف	7	171/173
14	سورة النحل	16	172
12	سورة الجاثية	45	172

سورة النّمل	27	172	
سورة التوبة	9	176	
سورة الطور	52	176	
سورة فاطر	35	176	
سورة الأنبياء	21	176	
سورة يس	36	176	
سورة التوبة	9	177	
سورة هود	11	177	
سورة الرّوم	30	176	
سورة الطور	52	176	
سورة فاطر	35	176	
سورة الشعراء	26	177	
سورة الزمر	39	178	
سورة المطفّفين	83	178	
سورة يوسف	12	178	
سورة النّور	24	178	
سورة التوبة	9	178	
سورة البينة	98	178	
سورة آل عمران	3	180	
سورة الرحمن	55	180	
سورة المائدة	5	180	
سورة التوبة	9	180	
سورة البقرة	2	183	
سورة الفتح	48	183	
سورة الرّوم	30	183	
سورة النّمل	27	184/185	
سورة النحل	16	185	
سورة النبأ	78	185/186	

86	
19	
4	
37	
44	
68	
18	
61	
9	
4	
37	
183	
2	
11	
76	
2	
33	
5	
103	
9	
48	
71	
248	
4	
21	
86 et 160	
80	
10 et 11	

الفهرس

تقديم 7

I –مسار العمران البشري ومشروعية الحل الإسلامي 19

1- المسار التاريخي للعمران البشري 21

2- الظاهرة الحضرية وإشكالية العمران المعاصر 37

3- المواقف الفكرية أو تطور الفكر العمراني 44

4- مسار الحرية 51

5- مشروعية الحل الإسلامي 55

II –مدخل للمدينة الإسلامية 73

1- مدخل عام 75

2- مرحلة التأسيس 87

2-1- تأسيس المدينة الإسلامية 88

2-2- نشأة الفكر العمراني 125

2-3- أولى المدن الإسلامية 130

III -العمران الإسلامي: تصور ومفاهيم 151

1- مبادئ منهجية 153

2- المفاهيم الأساسية 157

فهرس الآيات 191

تم الطبع في أفريل 2010
إيداع قانوني : 2010-1171
مطبعة الفنون الجميلة
الجزائر

ابراهيم بن يوسف

حائز على شهادة دكتورة دولة في تخطيط المدن، خريج جامعة السوربون باريس IV وخريج جامعة السوربون الجديدة باريس III في الحضارة الشرقية والإسلاميات. صاحب مؤلفات عديدة. أستاذ-باحث سابقا بجامعة الجزائر والمدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والعمران - الجزائر. وهو الآن خبير دولي في ميدان التخطيط العمراني والتنمية الاجتماعية.

إشكالية العمران والمشروع الإسلامي

ونحن على وشك الدخول في الألفية الثالثة من التاريخ وبعد شوط كبير قطعه الإنسان من مساره، نتساءل ماذا تمخض عن تلك المسيرة الطويلة للعمران البشري؟ لماذا بقي الإنسان، رغم هذا الشوط الذي قطعه، يتخبط في أزمة حضارة وعمران؟ لماذا بقي رغم طموحه نحو التطور رهينة للقيود؟ كيف ينظر الإسلام إلى هذه الأزمة؟ وما هو البديل الذي يطرحه الإسلام؟

تلك عموما أسئلة وتساؤلات يحاول الكاتب إثارتها.

ISBN 9947-886-63-2

9 789947 886632

www.editions-alpha.com